

تأليف : د . هـ . لورانس ترجمة : د . رمسيس عوض

« الرجل الذى مات »

تأليف د. هـ . لورانس

ترجمة وتقديم د. رمسيس عوض

العدد ٥٨٣
يوليو ١٩٩٧ ● ربيع أول ١٤١٨ هـ
No-583-JUL-1997

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٥٥ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٣٥ دولارا ـ امريكا واوروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٦٠ دولار.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ـ ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى

تصدر عن مؤسسة دار الهلال
الإصدار الأول : يناير ١٩٤٩

ثمن النسخة
سوريا ١٦٠ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الاردن ٣٢٥٠ فلساً - الكويت ٢٠٠٠ فلس - السعودية ١٨ ريالاً - البحرين ١,٨٠٠ دينار - قطر ١٨ ريالاً - دبى / ابو ظبى ١٨ درهماً - سلطنة عمان ١,٨٠٠ ريال -

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية
THE MAN WHO DIED
by
D.H. LAWRENCE

الغلاف للفنانة :
سميحة حسنين

قبل أن تقرأ

مات د. هـ. لورانس فى عام (١٩٣٠) أى بعد عام واحد من نشر قصته «الرجل الذى مات» (١٩٢٩) التى كانت فى الأصل تحمل عنوان «الديك الهارب». تدهورت صحته آنذاك على نحو مروع وكان الموت يحلق فوق جسده. وباقتراب شبح الموت منه زاده ذلك استمساكا بالحياة. يقول النقاد إن وصفه لقيامة المسيح من القبر فى قصته وهو فى حالة من الاعتلال والانهيار الشديد لم يكن سوى وصف على الصعيد الشخصى لحالته الصحية المتهالكة. يقول لورانس عند شعوره بدنو الموت منه :

«إننى بكل بساطة أعانى من تغير فى الحياة ونوع غريب من الارتداد كما لو كانت روحى ترتد إلى الخلف نائية عن الاتصال بكل شىء. ذلك كان بمثابة اليوم الذى وضعوا فيه يسوع المسيح فى القبر. وفى واقع الأمر بدأت هذه الأيام الثلاثة التى قضاها يسوع فى القبر تكتسب معنى فظيعا مروعا بالنسبة لى وتصبح حقيقة ماثلة أمامى».

ويحدثنا لورانس عن قصته قائلا :

«ألفت قصة عن القيامة حيث تصورت المسيح ينهض من قبره شاعرا بالغثيان الشديد من كل شىء ولم يعد باستطاعته أن يتحمل جموع البشر التى تبعته فيما مضى . ومع إبلاله من مرضه أخذ يدرك كيف أن عالم الظواهر عالم يبعث على الاندهاش وكيف أنه أكثر مدعاة للدهشة من الخلاص والجلة وشكر المسيح حسن حظه لأنه لم يعد بحاجة إلى أداء رسالته. وهذه القصة تسمى (الديك الهارب) » .

لم يكن لورانس أول من استحدث عنوان «الرجل الذى مات» فقد سبقه إلى ذلك ادوين ارلنجتون روبنسون الذى أصدر عام ١٩٢٤ كتابا بعنوان «الرجل الذى مات مرتين» . سعى لورانس فى قصته إلى الهجوم على القديس بولس بسبب اعتقاده بانفصال الروح عن الجسد واعتقاده أيضا أن الجسد مصدر كل الشرور والفساد ، فقد جاء فى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية إصحاح ٧ آية ١٤ : « فإننا نعلم أن الناموس روحى وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطيئة » والذى لاشك فيه أن لورانس تأثر فى هجومه على المسيحية بوجه عام وعلى القديس بولس بوجه خاص بما نشره الفيلسوف الألمانى المعروف نيتشه بعنوان «عدو المسيح» المنشور عام ١٨٨٨ فقد أدان نيتشه فى كتابه تحول الله إلى قوة معادية للحياة البشرية .

استمد لورانس بذرة قصته من قصة قرأها نحو عام (١٩١٦) من تأليف جابرييل دافونتتسيو بعنوان «عذراء الصخرة» (١٨٩٥) فقد كتب دافونتتسيو مدافعا عن النظرة الحسية إلى الحياة بصدد المسيح: «من الجائز لو أن اليهود لم يقتلوه فى مقتبل العمر لأزاح عن كاهله وطأة الحزن واستساغ مذاق ثمار الجليل اليانعةوبين لتابعيه أن هناك سعادة أخرى» .

قرأ لورانس هجوم نيتشه على المسيحية فى مارس عام ١٩١١ ، ونحن نجد أصداء لتأثره بأفكار هذا الفيلسوف فى روايته «قوس قزح» ، وفيها نطالع أن بطلتها أورسولا : «كانت تشعر بوجود شىء غير نظيف ومنحط فى الجانب المتواضع من المسيحية ، كما أن الرعب امتلكها عندما حثها البعض على اكل جسد يسوع الميت» ، وفى مقال سطره لورانس عن الشاعر الأمريكى والت ويتمان فى نهاية الحرب الأولى نراه يعالج نفس الموضوع الذى عالجه فيما بعد فى قصته : «الرجل الذى مات» . يقول لورانس فى مقاله عن ويتمان : «إن المسيحيين فى مرحلة تلو الأخرى قاموا فعلا بتدمير الجانب الحسى فى الإنسان» .

ويناقش لورانس فى احدى مقالاته اللاحقة بعنوان «الله الذى قام من الأموات» العلاقة بين بعث الجسد وتجدد الطبيعة فى موسم الربيع ، قائلا فى هذا الشأن : «إن مذهب الكنيسة

يبشر ببعث الجسد وإذا لم يكن هذا معناه بعث الإنسان كاملا فإنه يصبح بلا معنى . والويل لـــى إذا كـان يمكن للإنسان أن يصبح كامـــلا بــدون امـرأة . إنه قـــام من الأمـــوات ليتحد مع الحياة ويحيى تلك الحياة العظيمة المشتملة على الروح والجسد معا .. وإذا كان يســوع المسيح قد قام فى الجســد والروح كإنســـان مكتمل فإنه لم يفعــل هــذا إلا ليتخذ لنفسه امـرأة يعيش معـها ويعـرف رقة وازدهـــار الاتحاد بها .

ان القصة التى ألفها لورانس تبدأ بيقظة حواس الرجل الذى مات وتحوله من عـالم مسيحى إلى عـالم وثنى تتجدد فيه الطبيعة فى فصل الربيع . ان لورانس يعيب على المسيحية إيمانها بحب العالم وإنكار الذات من أجله فى حين أن الهدف الحقيقى من الحياة ليس الايثار أو انكار الذات ولكن تحقيق هذه الذات فضلا عن أن المسيحية تحض على زراية الجسد فى حين أنه يعلى من شأن الجسد وينادى بضرورة انصهار الجسد والروح فى بوتقة واحدة . والقارىء لروايته الشهيرة «أبناء وعشاق» يرى أن بطلها بول (الذى يمثل المؤلف) يتمرد على تزمت أمه وتشددها البيوريتانى فى فهم الدين المسيحى . ومن ثم تمرده على الدين فى يفاعته ، وهو لم ينبذ الدين بسبب أمه فحسب بل بسبب حبيبته ميريام التى كانت تحبه حبا

مسيحيا افلاطونيا طاهرا ونقيا وتستبشع ما قد يظهر عليه من عواطف جنسية . إن المسيحية التى كانت تصلح فى الماضى لم تعد – فى نظر لورانس – تصلح للحاضر . يقول مؤلفنا فى هذا الشأن :

« إننى أعرف عظمة المسيحية ولكنها عظمة تنتمى إلى الماضى ، وإنى أعرف أنه لولا المسيحيون الأوائل لما كنا قد خرجنا أبدا من الفوضى وويلات العصور الوسطى التى تبعث على اليأس والقنوط ، ولو أنى كنت أعيش عام ٤٠٠ ميلادية لكنت مسيحيا حقا يتأجج بالعاطفة المسيحية ويبتهل إلى الله ، ولكنى أعيش الآن عام ١٩٢٤ بعد انتهاء شأن المسيحية ، إن المسيحية لم تعد أمرا مثيرا ويجب علينا الشروع فى مغامرة جديدة تقودنا إلى الله» .

وأخيرا لا مناص من القول إن قصة «الرجل الذى مات» واضحة التجديف فهى تتصور أنه بعد قيامته يخوض تجربة الجنس مع كاهنة ايزيس التى يتركها ويهرب من الحراس الرومان بعد أن وضع بذرته فيها ، حتى مـريم المجدلية أرادت غوايته وزوجة الفلاح أرادت أن تراوده عن نفسه . كل هذه الأمور جلية واضحة رغم شــدة إغـــراق القصـــة فى استخدام الرمـــوز والصور الشعرية وأيضا رغم استخدامها لمفردات الدين المسيحى مثل صياح الديك الذى أيقظه من

رقاده والذى يعيد إلى الأذهان صياح الديك عند خيانة بطرس للسيد المسيح .

الرأى عندى أن القصة هى هلوسة رجل عبقرى أضناه المرض وأهلك السقم جسده وأدناه من الموت فأصبح مستمسكا فى يأس عظيم بتلابيب الحياة التى أوشكت على الانطفاء وعلى أية حال فإن نشر مثل هذا العمل بلغته الأصيلة لدليل قوى على مدى ديناميكية الحضارة المسيحية وسماحتها ورحابة صدرها .

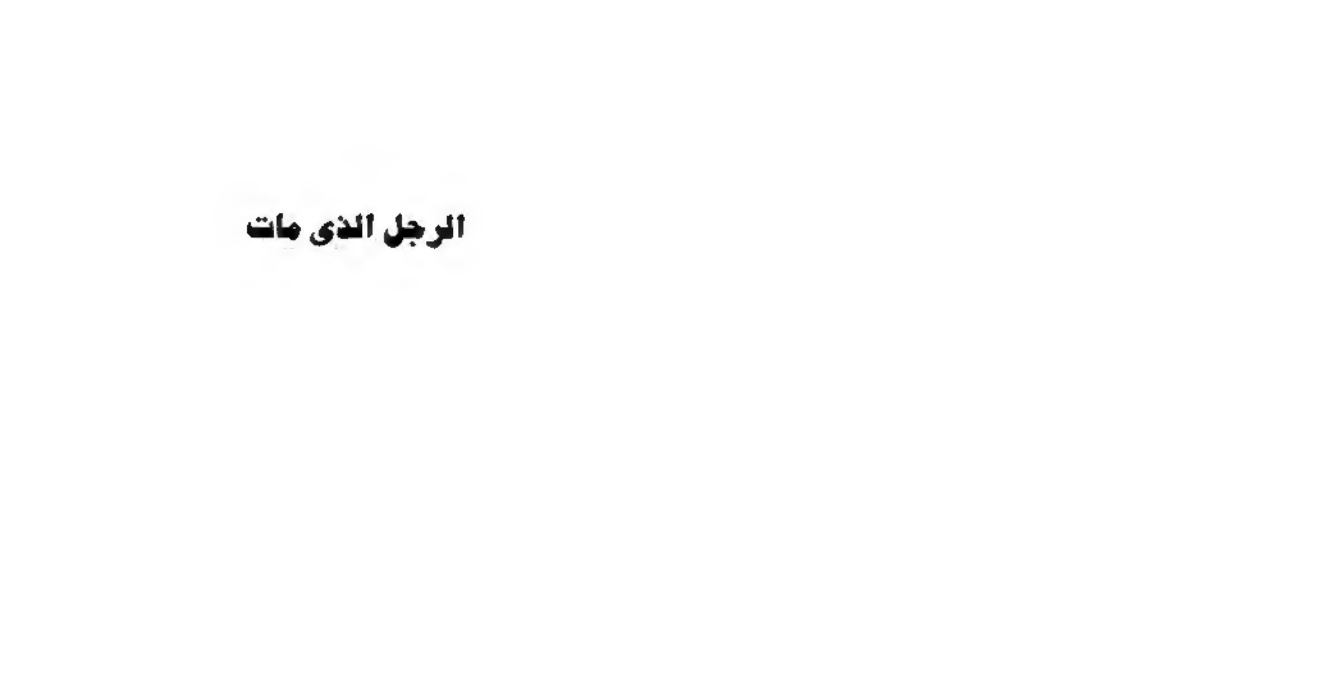
من الخطأ أن يعتقد القارىء أننا نهدف من وراء نشر هذه القصة إلى الزراية بالدين المسيحى ولشخصية المسيح . فليس هناك ما هو أغلى منهما لدى مترجم هذه القصة . والذى أغرانى بترجمتها والسعى إلى نشرها ما تتسم به من غرابة من ناحية ورغبتى فى إلقاء الضوء على نمط من الفكر الغربى لم نألفه فى الشرق . وأيضا يخطىء القارئ إذا ظن أننا نشارك المؤلف رأيه فى قليل أو كثير .

نحن جزء لا يتجزأ من الكوكب الذى نعيش عليه ولابد لنا من الإطلاع على تجاربه مهما بدت غرابتها . لابد لنا أن نتعرف على آراء الشعوب الأخرى مهما اختلفنا معها ومهما كانت قمينة أوكريهة على أنفسنا . فالعالم كما يقولون قد أصبح قرية صغيرة . وما يحدث فى أى ركن قصى منه أصبح

عن طريق وسائل الاتصال الحديثة وعلى رأسها الانترنت شديد الدنو منا . وتجاهل ما يحدث فى هذا العالم يضعفنا ولا يقوينا . ثم إن الأمانة تقتضى منا أن نتعرض لتجارب الآخرين بموضوعية وحيدة تامة دون أن يكون هناك ما يضطرنا إلى الأخذ بها . إن الأديان فى الشرق راسخة رسوخ الجبال العتيدة الشاهقة وسوف تظل كذلك إلى يوم الدين . ومهما قيل بشأنها فإنها لن تتأثر مطلقا ولن تتزحزح قيد أنملة .

وعلى كل حال إذا كان للقيم المادية والديمقراطية فى الغرب وجهها القمىء فإن للحرية وجهها المشرق رغم أنها قد تؤدى أحيانا إلى الشطط والتطاول على المقدسات . إن ما يتمتع به الغرب من حرية التفكير والتعبير دلالة قوة أكثر منه دلالة ضعف . فالغرب لم يعد يلتجىء إلى قمع الأفكار الهدامة أو المخالفة بل يكتفى بالرد عليها وتفنيدها وأعتقد أننا سوف نكسب أكثر مما نخسر إذا انتهجنا هذا النهج .

المترجم



الرجل الذى مات

كان هناك فلاح بالقرب من أورشليم يملك ديكا فتيا يفيض بالحيوية ، ورغم أن هذا الديك بدا زرى المنظر وضئيل الحجم فإن جسمه بتقدم الربيع غطاه الريش الزاهي ، كما أنه بدا بديعا بعنقه المقوس البرتقالي اللون حين ازدهرت الأوراق على أطراف أشجار التين .

وكان هذا الفلاح فقيرا يعيش في كوخ من الطوب المصنوع من الطمى وليس فيه سوى فناء داخلى هو كل ما يملك من أرض ويحتوى على شجرة تين قوية . وكان يعمل عملا شاقا في الكرمة وحقول الزيتون والقمح التي يملكها سيده . ثم يعود بعد عمله الشاق لينام في بيته المجاور للطريق . وأيضا يحتوى فناء البيت المقفول على ثلاث دجاجات زرية المنظر تضع بيضا صغير الحجم وقد سقط ريشها القليل الذى يغطي جسدها ، فضلا عن أنها خلفت وراءها كمية كبيرة من الوساخات لاتتناسب مع ضآلة حجمها .

وكان هناك كذلك في أحد الاركان تحت السقف المغطي بالقش حمار غبى اصطحبه الفلاح إلى العمل ، ولكن هذا الحمار كان يبقى أحيانا في البيت وكان هذا الفلاح متزوجا من امرأة لاتزال تحتفظ بشبابها ذات حاجبين أسودين ولا تميل إلى ارهاق نفسها في الشغل ، ورمت الزوجة للدواجن قليلا من الحبوب أو بقايا أكلة

العصيدة ، كما كانت تقطع العلف الأخضر بالمنجل لتقدمه إلى الأتان.

وكبر الديك الشاب حتى بدا على قدر من البهاء ، وشاءت الأقدار بالمصادفة أن يصبح هذا الديك غندورا في ذلك الفناء القذر الصغير يفعل ما يحلو له بثلاث دجاجات مبقعة تعيش معه في نفس المكان . وتعلم هذا الديك أن يلوى رقبته ويرفعها إلى أعلى مطلقا صرخاته الحادة استجابة لصياح الديوك الأخرى التي يصل صوتها إليه من وراء الجدران ومن عالم لايعرف عنه شيئا ، غير ان صياحه كان يتسم بحدة غير عادية ، وكانت صيحات الديوك الأخرى تثير ثائرته على نحو غير متوقع .

قال الفلاح ناهضا وهو يشد رداء النهار فوق رأسه : « يا لجمال غنائه» فردت عليه زوجته : ان هذا الديك قادر على معاشرة عشرين دجاجة » .

وخرج الفلاح ليلقى بفخر نظرة على ديكه الشاب الذى بدا مزدانا بعد أن تعرف معرفة أخيرة على ثلاث دجاجات رثة المظهر، ولكن الديك أمال رأسه ليستمع إلى التحدى الذى جاءه من بعيد من الديوك غير المرئية في العالم المجهول . ووصلت إليه أصوات هذه الديوك وهى تصيح بغموض من مكان ناء فرد عليها الديك بصوت تحد مجلجل لا يعرف الخوف أو الضعف .

قالت زوجة الفلاح : «إنه بكل تأكيد سيطير هاربا منا في يوم من الأيام» ولهذا حرص الفلاح وزوجته على إغرائه بالقمح وأمسكا به رغم أنه قاومهما بقوة برجليه واصطفاق أجنحته ووضعا قطعة من الدوبار حول عظمة ساقه وربطاه من طرف إلى صخرة وربطاه من الطرف الآخر إلى العمود الذي يحمل سقف زريبة الحمار المصنوع من القش .

ومشى الديك الشاب بعد تحرره مشية المختال في سخط حتى ابتعد عن البشر ، وأتى إلى نهاية الدوبارة ثم هز رجله المربوط بعنف فارتطمت وسقط الديك للحظة على الأرض وهو يتصارع في حدة على أرضية البيت الترابية غير النظيفة الأمر الذي أفز الدجاجات الرثة ، ولكن الديك بعد أن ترنح ترنحا واهنا استطا أن يستعيد قدرته على المشي على رجليه ثم وقف ليفكر ، وندت ع الفلاح وزوجته ضحكات من القلب ترامت إلى أسماع الديك الشا الذي أدرك متشائما – اعتمادا على تلك المعرفة المنذرة بالشر – رجله مقيدة .

لم يعد الديك يمشي مختالا مرفرفا جناحيه ونافشا ريشه مشى بجهامة بقدر ما سمحت له قيود الدوبارة ، وكان لا ي يزدرد أفضل الحبوب في طعامه كما كان في بعض الأحيان يد بعض أفضل هذه الحبات لتأكلها دجاجته التي اختارها لت

محظيته في تلك اللحظة ، ورغم هذا فإنه سار في زهو مفترس ترتجف أوصاله وتهتز نحو محظياته من الدجاج الواقفة في طريقه دون مبالاة أو اكتراث ، مظهرا قدرته الخافية على إغراء الاناث ثم صاح متحديا صوب صيحات الديكة الأخرى التي انهمرت عليه في الفجر من مكان ناء وبعيد .

والآن اتسمت طريقته في ازدراد الطعام بشراهة متجهمة، كما أن طريقته في معاشرة الدجاجات الرثة اتسمت بالانتصار المنتكس ، وفضلا عن ذلك فقد صوته جلجلة رنينه الذهبي الكامل . ولا غرو فهو مربوط من رجله وهو يعلم ذلك ، ثم إن الدوبارة قيدت جسده وروحه ونفسه .

ورغم ذلك استمر بجهامة في أعماقه ينبض بالحياة الدافقة . وشعر بضرورة تمزيق الرباط الذي يقيد حركته ، وفي صبيحة أحد الأيام وقبيل انبلاج نور الفجر صحا الديك من سباته وقد غمرته موجة من القوة المفاجئة ، وقفز إلى الأمام على جناحيه فانقطعت الدوبارة ، وندت عنه نعقة وحشية غريبة . وبقفزة واحدة اعتلى أعلى الحائط ، وهناك صاح صيحة حادة عالية أيقظت الفلاح من نومه .

وفي نفس الوقت ، بل وفي نفس الساعة السابقة على انبلاج الفجر من صبيحة نفس اليوم استيقظ رجل من سبات عميق كان

قد استغرق فيه ، ولما استيقظ شعر بالخدر والبرودة يسريان في جسده ، وهو راقد في مغارة منحوتة في الصخر ، وكان جسده طيلة نومه الطويل يعاني من الألم الذي لم يبارحه حتى بعد استيقاظه ، ورغم أنه لم يفتح عينيه ، فإنه أدرك أنه يقظان وأنه يشعر بالخدر والبرودة يسريان فيه كما شعر بأن أعضاءه متصلبة وتفيض بالألم ، فضلا عن أنه مربوط إذ كان وجهه ملفوفا في أكفان باردة ورجلاه مربوطتين ، ولكن يديه فقط كانتا مقيدتين .

كان باستطاعته أن يتحرك لو أراد ذلك ، ولكن لم يكن راغبا في الحركة فمن ذا الذي يريد أن يعود من عالم الأموات ؟ واستولى عليه شعور قوي بالغثيان عندما أحس أن هناك ما يشير إلى أنه أصبح قادرا على الحركة ، لقد شعر لتوه بالسخط لأنه أبدى حركة غريبة وغير محسوبة تدل على استرجاعه الوعي وهو ما كان لايرغب في حدوثه ، فقد كان يؤثر البقاء في ذلك الخارج الذي تصير فيه الذاكرة نفسها مثل قطعة الحجر الميتة .

لكنه أحس الآن بشئ يعود إليه ، مثل رجوع خطاب إلى راسله وأثناء عودة هذا الشئ أحس بالغثيان يستولي عليه، ومع ذلك تحركت يداه فجأة ، وارتفعت يداه باردتين وثقيلتين وتنتشر فيهما القروح . ولكنهما رغم ذلك تحركتا لتزيحا القماش الذي يغطي

وجهه والأربطة المحيطة بكتفيه ، وبعدئذ تهاوت يداه للمرة الثانية باردتين خدرتين وهما تؤلمانه لأنه بذل مثل هذا الجهد في تحريكهما، وأصبحت يداه على غير استعداد للحركة بالمرة .

وبعد أن أزاح الرجل غطاء وجهه وحرر كتفيه من القيود ، أصابته انتكاسة فرقد ميتا مستندا إلى فناء الموت البارد ، وهو أقصى مايمكن للمرء أن يرغب فيه ، وكاد يبلغ تماما حالة الفناء الناجم عن الوجود خارج هذا العالم .

ورغم أنه كاد يفقد وعيه ، فإنه شعر فجأة بالألم في معصميه وارتفعت يداه ، وبدأتا في إزاحة اللفائف المحيطة بركبتيه، كما شرعت قدماه في الحركة ، ولكن صدره ظل راقدا تسري فيه برودة الموت .

وأخيرا فتح عينيه على الظلمة . نفس الظلمة ! ولكن ربما كان هناك بصيص خافت من ذلك الضوء الذي يخترق الظلمة الدامسة باعثا على الازعاج الشديد ، ولم يستطع أن يرفع رأسه وأغمض عينيه مرة أخرى شاعرا أن أمره قد انتهى .

وفجأة اعتدل في رقدته ، فرأى العالم يترنح من حوله ، وتساقطت الضمادات وبدأ يحس بجدران المغارة تضيق عليه ، مما أعطاه احساسا جديدا مؤلما بأنه مسجون في زنزانة ، وكانت

هناك شقوق تسمح بمرور بصيص من الضوء فيها ، وأمده الإحساس باقشعرار بدنه بقوة دافعة جديدة مكنته من أن يمس بجسده إلى الامام في جوف المغارة الضيق ، وأسند يديه الواهنتين على الصخرة بالقرب من الشقوق التى نفذ الضوء من خلالها

وجاءته القوة من مكان ما ... من اقشعرار بدنه نفورا واشمئزازا . وحدث صوت ارتطام واخترقت المكان موجه من الضياء وطأطأ رأسه وجرمز في حجرة يو حه ندفاع الضوء الوحشي ، لم يكن الفجر بعد قد انبلج ، وداعبت غرابة وحدة أنفاس الفجر النافذ مما يدل على يقظته الكامنة في سباته

وشيئا فشيئا زحف الرجل من زنزانة المغارة بحرص من ك مصابا بجراح ثخينة ، وسقطت عنه الضمادات والكتان والعصو وجرمز على الأرض مستندا إلى حائط المغارة الصخرى ليستنفد سبابه لما حوله ، ولكنه رأى قدميه اللتين تؤلمانه تلمسان الارض مرة أخرى في ألم ممض لايطاق ، تلك الأرض التى لم تكن لتلمساها قط ، ورأى ساقيه النحيلتين اللتين ماتتا ، ومالا لاسبيل لاستكناه حقيقته ألم يشبه الجسد عندما ينفض ع

نفسه الأوهام ويفيق إلى الحقيقة إلى الحد الذى جعله يقف على قدميه ويضع يده الممزقة على حافة القبر

يالها من عودة إلى الحياة من عالم الأموات ! ورأى لفائف الكتان تسقط من حول قدميه الميتتين فانحنى ليلتقطها ويطبقها ويضعها فى التجويف الصخرى الذى خرج منه ، وبعدئذ أخذ ملاءة الكتان المعطرة ولفها حول جسده كعباءة يتأزر بها ، ثم التفت إلى الفجر الخافت البارد

كان وحيدا وأصبح بموته يتجاوز حتى الوحدة

وكان لايزال ممتلئا بالشعور بالغثيان الذى يسببه نفضه الذى لايوصف للأوهام ، وخطا الرجل بأقدام انكمشت فجأة من شدة الألم على المنحدر الصخرى ، ومر على جنود الحراسة النائمين و لراقدين تحت نبات الغار الوحشى فى عباءاتهم المصنوعة من الصوف ، وبينما هو صامت وواقف على قدمين مثخنتين بالجراح يلفه كفن من الكتان الأبيض ألقى الحظة نظرة على أجساد لجنود التى تشبه الكومة الخامدة ، واثار منظرهم فى نفسه المقت الشديد ولكن بالرغم من أنهم بدوا مجموعة من الأطراف البطيئة القذرة فإنه شعر بنوع من العطف عليهم ، وتقدم فى اتجاه الطريق خشية أن يوقظهم من نومهم

لم يكن لديه أى مكان يذهب إليه ، فانصرف من المدينة الو معـ على التلال وتبع ببطء الطريق مبتعدا عن المدينة ومر أثناء سير بشجر الزيتون التى كانت زهور الأنوميا تنحنى أسفله فى برود الفجر في حين تكاثرت الحشائش الغنية بالخضرة وبدا العالم نفس العالم العالم الطبيعى الزاخر بالخضرة وارتفع صوت العندليب الحلو الجذاب يشدو بنغمة مغربية حزينة مغنيا عـ الشجيرات الواقعة بجوار ساقية المياه الموجودة فى هذا العـ الطبيعى حيث الصباح والمساء الذى لايموت والذى كان شاهـ على وفاته

ومضى فى سبيله على قدمين مليئتين بالجروح والندوب ، لا هـ من هذا العالم ولا هو من العالم الآخر ، لا هو هنا ولا هنا ولا هو بالمبصر او بغير المبصر ، مضى الرجل فى عتامة إلى الأمـ مبتعدا عن المدينة وضواحيها متعجبا لما يدعوه إلى السـ والتجوال ، ومع ذلك فقد تحرك فيه احساس عميق غامض بالغثيان مثلما دفعه احساس بالتصميم ، لم يكن يدرى ا يخامره

وتقدم فى طريقه وهو نصف واع بما يفعل تحت الحـ الصخرى الجاف المحيط ببستان الزيتون ، وأيقظه صياح الديـ الحاد العنيف والقريب منه . وكان صياح الديك سببا فى شعو

بالنفور والاشمئزاز كما لو كان مسا كهربائيا قد أصابه ، ورأى ديكا يجمع بين اللونين الأسود والبرتقالى قابعا على فرع شجرة تكسو الطريق كما رأى فلاحا يلبس جلبابا واسعا من الصوف يجرى وسط شجر الزيتون الموجود فى أعلى البستان، وجاء الديك ذو اللونين الأسود و البرتقالى يعلوه عرفه الأحمر وهو يقفز فى وسط الخضرة ، وقد انساب ريشه الطويل وضاء زاهيا

صاح الفلاح قائلا «أوقفه يا سيد ، أوقف ديكى الذى هرب منى» وفتح الرجل الموجهة اليه هذه الكلمات - وقد ارتسمت على وجهه خلجة مفاجئة من الابتسام - طرفى كفه الأبيض الواسع ليعوق حركة الطائر الهارب ، وتراجع الديك وندت عنه نعقة ورفرفة ، وقفز الفلاح إلى الأمام للإمساك به فحدثت رفرفة فظيعة فى جناحى الطائر الخفيفين ونفص ريشه

وتمكن الفلاح من استعادة الديك والامساك به فى أمان تحت إبطه فرفع رقبته بجنون إلى الامام وقد جحظت عيناه المستديرتان من حدقتيه البيضاويين

قال الفلاح «إنه ديكى الهارب» مربتا بيده اليسرى على الطائر ليهدئه ، وتفرس حبات العرق تنضح منه فى وجه الرجل الملفوف بالكتان الأبيض

وتغيرت ملامح الفلاح فوقف جامدا بلا حراك وهو يتطلع إلى وجه الرجل الذى مات وقد كسته صفرة الموت ، ذلك الوجه الساكن الغائب الممتقع امتقاع الموت بلحيته السوداء النامية كما لو كانت تنمو رغم الموت ، وتلك العيون السوداء الحزينة المفتوحة بانسا التى ماتت ، وتلك الندوب المغسولة على جبينه الممتقع . وفعـ الفلاح الذى تجرى الدماء فى عروقه بطنه فاهه بسبب عدم قدرته على استيعاب الموقف كما لو كان طفلا

قال الرجل المتدثر بالكفن . « لاتخف فأنا لست ميتا ، لقد تعجلوا فى إنزالى ودفنى ولهذا عدت من الأموات ، ومع ذلك فإنهم سيفعلون بى نفس ما فعلوا لو أنهم اكتشفوا أننى لا أزال حيا »

تحدث الرجل بصوت اشمئزازه القديم من الجنس البشرى وبالذات عندما يكون الجنس البشرى فى السلطة ! شئ واحد فقط يستطيع الجنس البشرى أن يفعله ! ونظر بعيون سوداء عند مكثرثة إلى عينىّ الفلاح المتحركتين السريعتين ، وارتجفت أوصال الفلاح ، وأصبح لا حول له ولا قوة أمام نظرات الرجل المفعم باللا مبالاة المحلقة وبالتصميم البارد الغريب ، ولم يكن باستطاعة الفلاح أن يقول شيئا غير قوله للشئ الوحيد الذى يخشى يتفوه به

« هل ستختبئ فى بيتى يا سيد ؟»

«سوف أرتاح هناك ، ولكنك إذا أخبرت أى إنسان ، فأنت تعرف ما سيحدث ، سوف يقودونك إلى القاضى»

وتلفت الفلاح من حوله فى خوف متعجبا بوجوم عما جدا به أن يجلب هذه المصيبة على نفسه ، وفى ألم صعد الرجل الذى تعطى الندوب قدميه حتى وصل إلى مكان بستان الزيتون ، وتبع الفلاح المسرع الواجم عبر أعواد القمح الخضراء الموجودة وسط أشجار الزيتون ، وشعر بملمس القمح النضير تحت قدميه اللتين ماتتا ، وكأنه قطعة من الحرير ، وأحس بخشونة حبات القمح المنفصلة

وعند حافة الصخور وقع بصره على براعم زهور الانيموتيا القرمزية ذات الملمس الحريرى والشعر الفضى وهى تنحنى إلى أسفل ، وأيضا كانت هذه الزهور تنتمى إلى عالم آخر أما هو فقد كان فى عالمه وحيدا وحدة مطلقة وكانت هذه الأشياء المحيطة به تنتمى إلى عالم لم يمت أبدا ، ولكن هو نفسه قد مات أو قتلوه حتى يخرج من هذا العالم ، وكل ما تبقى لديه الآن هو ذلك الشعور العظيم الأجوف بالغثيان الناجم عن نفض الأوهام الكامل والافاقة إلى الحقيقة

وجاء الرجلان إلى كوخ من الطين وبقلب حزين وكسير انحنى الفلاح حتى يمر الرجل الآخر .

قال الفلاح

ادخل .. ادخل فلم يرنا أحد ..!

ودخل الرجل المكتسي بالكتان الأبيض حجرة مبنية من الطين حاملا معه أريج العطور العربية ، وأغلق الفلاح الباب ودلف عبر مدخل داخلي إلى الفناء حيث وقفت أتان داخل الحوائط العاسة في مأمن من السرقة وهناك قام الفلاح - وهو أشد ما يكون انزعاجا - بربط الديك . وجلس الرجل المتقع الوجه على حصيرة بالقرب من المدفأة ، فقد كان منهوك القوى وبالكاد يحس بأنه واع لما يحيط به ، ورغم ذلك فقد سمع في الحال الفلاح وهو يهمس في أذن روجته التي كانت فوق السقف تراقب ما يحدث ، وفي الحال دخل الرجلان ، وأخفت المرأة وجهها وصبت الماء ووضعت الخبز والتين المجفف على طبق مصنوع من الخشب

قال الفلاح :

«لتأكل يا سيد ! لتأكل ! إن أحدا لم يرنا»

ولكن العربي لم تكن لديه الرغبة في الطعام ، ومع ذلك فإنه بلل قطعة صغيرة من الخبز في الماء وأكلها لأن الحياة يجب تستمر ، ولكن الرغبة ماتت فيه ، حتى الرغبة في الطعام والشراب ، لقد عاد من الأموات دون أية رغبة ، بل حتى دون الرغبة في أن يعيش ، وكان قلبه فارغا إلا من الشعور ببعض الأوهام الكاسح الراقد فيه مثل الغثيان الذي عاشه فيما مضى

ربما استقر في أعماقه أكثر من بعض الأحلام ذلك التصميم الزاهد في الرغبة الذي غار في أعماقه أكثر من الوعي ذاته

ووقف الفلاح وروجته بجوار الباب يراقبان فرأيا ، والرعب يملأ جوانحهما ، الجروح البيضاء المتقيحة على يديه النحيلتين الذابلتين وكذلك على قدمي الرجل العريب الناحلتين والندوب الصغيرة في جبينه الذي لايزال ميت وشما بفزع رائحة العطور الغنية التي فاحت منه ومن جسده ونظرا إلى الكتان الناصع البياض البديع الثمين ، ربما كان في حقيقة الأمر ملكا وافته منيته جاء من منطقة الرعب والفزع ، وكان لايزال باردا ونائيا في منطقة الموت يفوح اريج العطور في جسده الشفاف كما لو كان يفوح من زهرة عربية

وبعد أن ازدرد بصعوبة شيئا من الخبز المبلل ، رفع عينيه في اتجاه الرجل وزوجته وراهما كما كانا محدودين وضئيلين في حياتهما وعاريين عن روعة الحركة المعبرة عما يخالجهما وأيضا عاريين عن الشجاعة ، ولكنهما كانا كما كانا مجرد أجراء بطيئة لا

محيص عنها من العالم الطبيعي ، لم تكن فيهما نبالة ، ولكن الخوف بعث فيهما القدرة على التعاطف مع الآخرين

ومرة أخرى شعر الغريب بالتعاطف معهما لأنه عرف أنهما سيستجيبان ويخرجان أفضل ما فيهما أمام الرقة والحنو اللذين سوف يبادلهما اياهما برقة وحنو يختفيان تحت ستار من الخشونة

قال لهما برقة . «لاتخافا دعاني أمكث معكما وقتا قليلا إنني لن أمكث طويلا ، وبعدئذ سأرحل عنكما إلى الأبد . ولكن لا تخافا فلن ينالكما ضرر بسببي

وصدقاه على الفور غير أن الخوف لم يبرح قلبيهما وقالا

«أمكث يا سيد المدة التي تريدها ولتأخذ راحتك ولتجد راحتك بسكينة وهدوء»

ولكن الخوف ملأ قلبيهما .

وتركهما الرجل الذي مات لخوفهما ، وانصرف الفلاح بصحبة أتانه ، وبزغت الشمس ساطعة ، وفي ظلمة البيت والباب مغلق ، الرجل كما لو كان لايزال في القبر ، ولهذا قال للمرأة «سوف ... في الفناء»

وهبت المرأة لتكنس الفناء من أجله ووضعت له حصيرة فرقد أسفل الجدار وقد سقطت عليه شمس الصباح ، وهناك شاهد بشائر أوراق الشجر الخضراء تنطلق من نهايات شجرة التوت المحاطة عبر المكان الأجرد لتعاري نحو سماء الربيع فوقه ، ولكن الرجل الذي كان قد مات كان عاجزا عن النظر ، فكل ما استطاع فعله هو أن يرقد هامدا تماما في الشمس التي لم تكن السخونة قد دبت فيها بعد ولم يحس بالرغبة تعتمل بين جوارحه ولاحتى الرغبة في أن يبدي حراكا ، ولكنه رقد وقد امتدت رجلاه النحيلتان في الشمس وانسدل شعره الأسود المعطر على تجويف رقبته ، وكانت ذراعاه الساخنتان لخاليتان من اللون في حالة من الخمول الكامل ، وبينما هو راقد كانت الفراخ تقوقو وتنبش الأرض اما الديك الهارب الذي تم الامساك به وربطه من رجله مرة أخرى فقد قبع في ركن وقد اعتراه الخوف والقرق

وانتاب الخوف المرأة الفلاحة التي جاءت متلصصة ولما رأت أنه لا يتحرك أبدا ، خافت أن يكون الرجل قد مات في ... بيتها ، ولكن عندما اشتدت الشمس فتح الرجل عينيه ونظر إليها فانتابها الخوف من هذا الرجل الحي الذي لم ينبس ببنت شفة

فتح عينيه ورأى العالم مرة أخرى فى لمعانه الشبيه بلمعان الزجاج ، وأحس بالحياة التى لم يعد له فيها أى نصيب ، ومع من حوله الأشياء السماء الزرقاء وشجرة التين الجرداء تكسو نتف من الأوراق الخضراء . كان كل شئ يلمع كالزجاج دون يشارك فيه لأن الرغبة التى تعتمل فيه قد ماتت .

ومع ذلك كـان الرجل هناك لم تنطفىء فيه جذوة الحياة تمام وأمضى يومه فى نوع من الغيبوبة ، وعند هبوط المساء دخ المنزل، كان الفلاح قد رجع إلى بيته يعتريه الخوف ، وص صامتا لاينبس بكلمة واحدة ، وأيضا أكل الرجل الغريب من عش الفول ، ولكن قليلا . وبعدئذ غسل يديه والتفت إلى الحائط و صامتا ، وكان الفلاح وامرأته صامتين كذلك ، ولاحظا ا ضيفهما نائم . كان النوم الذى استطاع أن ينامه أقرب ما يك إلى الموت .

ورغم هذا فعندما ارتفعت الشمس إلى كبد السماء ذهب ل الثانية كى يرقد فى الفناء ، وكانت الشمس هى الشئ الوحيد ال اجتذبه وأثر فيه ، وكان لايزال راغبا فى استنشاق هواء الصب البارد فى فتحتى أنفه ، وأن يرى السماء الشاحبة فوق رأس فهو يكره الشعور بأنه محبوس

وعندما خرج الرجل صاح الديك الشاب، كانت صيحته ضئيلة متقطعة ولكن كان فى صوته شئ أقوى مما أصابه من كمد إذ إنه شعر بضرورة الحياة وبالرغبة فى أن يزعق زعقة تنم عن استمرار الحياة ، ووقف الرجل الذى مات يراقب الديك الهارب الذى تم الإمساك به ، وهو يرفرف بجناحيه أثناء نهوضه يرتفع إلى الامام على أطراف أصابعه ، ويرفع رأسه ويفتح منقاره فى تحد آخر من جانب الحياة ضد الموت وجلجلت أصوات الديك الشجاعة ورغم أن هذه الأصوات خفتت بسبب الدوبارة الملفوفة حول رجله إلا أنها لم تضمحل ، ونظر الرجل الذى مات نظرة عارية إلى الحياة ورأى تصميما هائلا فى كل مكان يقذف بنفسه فى ذرى موجات عاصفة أو ناعمة أطراف الزبد تخرج غير مرئية من الزرقة ، وديكا يجمع بين السواد والصفرة أو ألسنة اللهب الخضراء وهى تخرج من ماصى شجرة التين ، وجاءت أشياء الربيع ومخلوقاته مموجة بالرغبة والتأكيد ، جاءت مثل قمم الزبد من ذلك الفيض الأزرق النابع من الرغبة غير المنظورة ومن بحر القوة الهائل وغير المرئى جاءت محسوسة وتزدان بالألوان مضمحلة واهنة ولكن لا يصيبها الموت ، ونظر الرجل الذى مات الى الصورة العظيمة التى يتسم بها وجود الأشياء التى لم تمت ،

ولكنه لم يعد يرى رغبتها المرتجفة من الوجود والكينونة ، وسمع بدلا منها ذلك التحدى المجلجل لكل الموجودات الأخرى .

رقد الرجل دون أن يحرك ساكنا وفتح عينيه اللتين عرفتا المد واسعتين وفى عتمة لم تتبدد ورأى تصميم الحياة الخالد. وبـ الديك بطرته بنظرة مستوية ذات بريق .. بنظرة الطير الذى لا يرى الأشياء بجلاء . ولم ير الرجل الذى مات الطائر وحده ولكنه رأى معه موجة الحياة القصيرة الحادة التى كان الديك يعتلى قمتـ وراقب حركة منقار هذا المخلوق الغريب وهو يلتهم بداخله نقـ الطعام وينظر إلى عين الحياة وهو فى حالة د ئمة من التـ والتأهب والمراقبة والتيه بالنفس والحرص والحذر ، وصوت حـ يرتفع بالنصر والتأكيد ولكنه يشعر فى نفس الوقت بالاحـ بسبب الظروف التى شاءت أن تقيد حركته بدوبارة . وبـ الرجل يستمع إلى اللغة الغريبة التى تتميز بها الحياة نفسها كان الديك يقلد فى انتصار نقنقة دجاجته الأثيرة إليه وهى تـ بيضة . وهى نقنقة ما زالت تثير فى الديك الغصة الحـ الناجمة عن النعف الدوبرة حول رجله ، وعندما ألقى الرجل من الخبز للديك صاح الديك برقة غير عادية تحمل فى طـ الغواية والاغراء وهو ينش الأرض مدخرا قطعة الخبز مر

الدجاجات التى أسرعت نحوها بسهم حاملة إياها بعيدا بحيث لا تصل إليها الدوبارة .

وبعد ذلك ، مشى الديك فى حالة من الرضا عن النفس خلف الدجاجات ، وفجأة تشابكت قدماه عندما وصل إلى نهاية مربطه مما أدى إلى استسلامه فى حالة من الانهيار . ثم ما لبث عرف الديك أن تقلص وانكمش وهو يرقد منكوما فى الظل . كان الديك لا يزال فى حداثته ورغم لمعان الريش فى ذيله فإن ريشه لم يكن قد كبر ونما تماما . ولم ينته به فيض الحياة ومدها وجزرها إلى النسيان إلا عند حلول المساء . وعندما اقتربت ببطء دجاجته المفضلة – وهى تتسكع دون مبالاة وتفرد اعر عها – إذا بالديك يعتليها وكل ريشة من ريشه تهتز ، وراقب الرجل الذى مات الطائر المنحنى على ظهر الدجاجة وهو يهتز اهتزازا عنيفا وغير منتظم فلم ير الديك بل رأى موجة عاتية من الحياة تلاطم فى لحظة موجة أخرى فى خضم ذلك المد الذى يمور به محيط الحياة . وبدا له أن مصير الحياة أكثر ضراوة وقدرة على الارغام من مصير الموت . وبدا مصير الموت كالظل بالمقارنة بمصير الحياة الصاخب بدورتها المحتدمة .

وفى الغسق عاد الفلاح إلى بيته مصطحبا أنابه وقال .

«يقال إن الجسد سرق من البستان وأن القبر أصبح فارغا .

وقد تم سحب الجنود الرومان الملاعين . وأخذت النسوة ينتحبن هناك»

وتطلع الرجل الذى مات إلى الرجل الذى لم يمت . وتكلم قائلا «حسنا التزم الصمت وسوف تكون في مأمن »

وأحس الفلاح بالارتياح . وبدا منظره قذرا وغبيا بعض الشيء كما بدا أنه لن يعرف أبدا وهج اللهب المتقد الذى سرى في دم الديك الشاب المربوط من رجله . كانت جذوة النار قد انطفأت فيه ولكن الرجل الذى مات قال لنفسه .

«ما الداعى إذن إلى الارتفاع به . إن كتلا من طين الأرض تقلب من أجل الترويح والتجديد دون حاجة إلى الارتفاع بها فلتظل الأرض أرضا – ولتقاوم السماء . لقد سعيت إلى الارتقاء بالأرض ولكنى كنت مخطئا عندما حاولت التدخل نصيب المحراث من الدمار سوف يوضع في أرض اليهودية وسوف تقلب حياة هذا الفلاح مثل كتل الطين في الحقل التي تنمو عليها الأعشاب وتبقى جذورها تحتها ليس في مقدور أي إنسان انقاذ الأرض من الحرث . المهم هو الحرث وليس الخلاص ... »

ونظر إلى الفلاح بتعاطف ولكن الرجل الذى مات لم يعد يرغب في التدخل في روح الرجل الذى لم يمت والذى لن يكون في

استطاعته أبدا أن يموت إلا ليعود إلى التراب . دعه يعود إلى التراب عندما تحين ساعته . ولا تدع أحدا يحاول التدخل عندما يستعيده التراب إليه .

وهكذا سمح الرجل ذو الندوب والجراح للفلاح أن يمضي إلى حال سبيله . ولم يكن الفلاح ليولد من جديد . ومع ذلك قال الرجل الذى مات لنفسه «هو مضيفي» .

وفي الفجر حين تحسنت حالة الرجل الذى مات ، نهض وسار إلى البستان بأقدام بطيئة مليئة بالقروح . لقد تمت خيانته في البستان كما تم دفنه في البستان . وعندما تلف حول ساتر من نبات الغار بالقرب من وجه الصخرة ، رأى امرأة تحوم حول القبر ترتدى ثيابا زرقاء وصفراء . وألقت المرأة مرة أخرى نظرة متلصصة داخل فتحة القبر الشبيه بدولاب عميق الأغوار . ولكن القبر كان لا يزال فارغا . وعصرت يديها وأجهشت بالبكاء . وعندما ابتعد نظرها عن القبر رأت الرجل ذا الثياب البيضاء واقفا بجوار نبات الغار . وندت عنها صرخة ظنا منها أنه جاسوس جاء ليتلصص عليها . قالت

«لقد أخذوه»

فقال لها

«يا مريم المجدلية !»

فمادت الأرض تحت قدميها لدرجة أنها كادت تسقط على الأرض لأنها عرفته . قال لها .

«يا مريم المجدلية ! لا تخافي . إنني حي . لقد ابرأوني بأسرع مما ينبغي ولهذا عدت إلى الحياة . وبعد ذلك احتميت في بيت» .

وارتج عليها فلم تعرف ما عساها أن تقول ولكنها جثت عند قدميه لتقبيلهما ، فقال لها

«لا تلمسيني يا مريم . ليس الآن . إنني لم أشف من جرحي ولست بعد على صلة بالبشر» .

وانخرطت في البكاء لأنها لم تكن تعرف ما عساها أن تفعل وقال لها

«دعنا ننتحي جانبا بين الشجيرات حيث يمكننا أن نتحدث على انفراد دون أن يرانا أحد » .

وتبعته المرأة وهي ترتدي وشاحها الأزرق وثوبها الأصفر بين الأشجار وجلس أسفل شجرة ريحان وقال .

«إنني لم أعد تماما إلى وعيي بعد . ماذا نفعل بعد ذلك يا مريم ؟» .

قالت : «يا سيد ! لقد بكينا من أجلك ! وسوف تعود إلينا»

قال : «الذي راح راح . ونهايتي قد مضت . إن جدول الماء سيظل يجري حتى تتوقف الأمطار عن ملئه . عندئذ سوف يصيبه الجفاف . إن تلك الحياة أصبحت منتهية» .

قالت له في حزن «وتتخلى عن انتصارك ؟» .

قال «انتصاري يكمن في أني لست ميتا ، لقد عشت بعد رسالتي التي لم أعد أعرف عنها شيئا . هذا هو انتصاري . لقد ظللت على قيد الحياة بعد اليوم الذي تدخلت فيه في حياة الآخرين وبعد انقضاء هذا التدخل ، إني لا أزال رجلا . لا أزال شابا يا مريم ولم أبلغ بعد منتصف العمر ويسرني أن كل هذا قد انتهى . لقد كان هذا الأمر مكتوبا على جبيني لكني الآن سعيد بانتهائه وبانتهاء يوم تدخلي . إن المعلم و المخلص فيّ قد مات يمكنني الآن أن أفعل ما شئت وأن أعيش حياتي الخاصة المفردة » .

ترامت كلماته إلى سمعها ولكنها لم تفهمها تماما . ولكن كلماته جعلتها تشعر بخيبة الأمل .

وألحت في قولها «ولكنك سوف تعود إلينا » .

قال : «لست أعرف ما سوف أفعل . وسوف أعرف على نحو أفضل عندما يتم شفائي . ولكن رسالتي قد انتهت ، وكذلك تعاليمي . وأنقذني الموت من تحقيق خلاصي . آه يا مريم أريد أن

اتبع طريقتي الخاصة فى الحياة فهى قدرى ونصيبى . إن حياتى العامة انتهت .. تلك الحياة التى كنت أشعر فيها بأهميتى الشخصية ، والان أستطيع أن أحدم الحياة وألتزم الصمت . فلا يحوننى أو يغدر بى أحد ، أردت أن أتجاوز الحدود التى تمكن لرحلى وقدمى الوصول إليها . ولهذا جلبت الخيانة على نفسى وإنى أعرف أنى ظلمت يهوذا .. يهوذا المسكين ، لأنى مت واعرف الآن حدودى ، أستطيع الان ان أعيش دون أن أحاول جاهد التأثير فى الآخرين كما كنت أفعل ، فمتناول يدى ينتهى عند أطراف أصابعى وخطاى لم تعد تتجاوز أخمص قدمى . ورغم هذا فإنى على استعداد لمعانقة جمهرة الناس ... أما الذى لم أعانق أبدا أى إنسان عناقا حقيقيا . ولكن يهوذا وكبار الكهنة أنقذونى من خلاصى الشخصى . وسرعان ما استطيع الانتقال إلى قدرى مثل مستحم فى البحر عند الفجر نزل لتوه إلى الشاطئ بمفرده .

فسألته « هل تريد أن تبقى بمفردك من الآن فصاعدا . وهل انتهت رسالتك إلى عدم ؟ هل كانت كلها غير صادقة ؟» .

قال : «نعم ! لم يكن عشاقك فى الماضى عدما . كانوا يمثلون الشئ الكثير بالنسبة لك . ولكنك أخذت أكثر مما أعطيت . عندما جئت إلى طلبا للخلاص مما وقعت فيه من افراط . وأنا أيضا من

ناحيتى مارست الافراط فى أداء رسالتى إذ إننى أعطيت أكثر مما أخذت ، وهذا أيضا أمر ينطوى على الويل والغرور . من ثم فقد أنقذنى بيلاطس وكبار الكهنة من الإفراط الشخصى فى أمر خلاصى ، يا مريم المجدلية لا تفرطى الآن فى العيش فهذا ينطوى على موت اخر فقط لا غير» .

وفكرت بمرارة لأنها كانت بطبعها تحتاج إلى العطاء بإفراط ولم تقدر أن تتحمل أن ينكر أحد عليه ذلك .

سألته «ولن ترجع إلينا . هل عدت من الأموات من أجل نفسك فقط» .

سمع نبرة السخرية والتهكم فى صوتها . وتطلع إلى وجهها الجميل الذى لا يزال مفعما بحاجتها المفرطة إلى الرغبة فى الخلاص مما كانت عليه تلك المرأة التى تصطاد الرجال حسبما تشاء . وغطتها سحابة الضرورة فى أن يتم إنقاذها مما كانت عليه من حواء القديمة والعنيدة التى احتضنت رجالا كثيرين وأخذت أكثر مما أعطت . أما الان فقد اعتراها قدرها الآخر ، فأرادت أن تعطى دون أن تأخذ ، وذلك أيضا كان قاسيا وصعبا على جسد المرأة النابض بالدفء .

قال : «لم أقم من الأموات حتى أسعى إلى الموت مرة أخرى» .

وتطلعت إليه ورأت الإنهاك مرة أخرى على وجهه المسف وخيبة الأمل الهائلة فى الاحلام تطل من عينيه السوداوين واللامبالاة المحتفية . وشعر بها وهى تنظر إليه فتحدث إلى نفسه قائلا «إن اتباعى الآن يريدون موتى مرة ثانية ، لأنى قمت من الأموات على نحو يختلف عما يتوقعونه منى » .

قالت له مريم المجدلية . «ولكنك سوف تأتى إلينا لترانا نحن الذين أحببناك » .

ضحك قليلا ثم قال . «نعم» وبعد ذلك أضاف « هل لديك قليلا من النقود ؟ هل اعطيتنى قليلا من النقود . سوف أردها إليك»

كانت النقود فى حوزتها قليلة ، لكن سرها أن تعطيها له قال لها . «هل تفكرين فى أننى قد اتى إليك وأعيش معك فى بيتك ؟» .

تطلعت إليه بعينين زرقاوين كبيرتين تلمعان ببريق غريب

سألته بنبرة فوز خاص «الآن ؟» .

فرد الرجل المنكمش فى نفوره من أي فوز من أي نوع سواء كان هذا الفوز خاصا به أو بأى شخص آخر ،

«ليس الآن ! ولكن فيما بعد عندما تلتئم جروحى .. وعندما تربطنى بالجسد صلة » .

فتساقطت منه الكلمات متعثرة . وعرف فى قرارة قلبه أنه لن يذهب أبدا ليعيش فى دارها لأنه رأى وميض الحصر يلمع فى عينيها ، كما رأى ذلك الشره نحو العطاء . ولكنها تمتمت فى نشوة وهمهمت قائلة «اه ! إنك تعرف استعدادي لهجران كل شئ من أجلك»

فأجابها بقوله . «نعم . ولكنى لم أطلب منك ذلك» .

وانتابه لمرة أخرى شعور بالنفور والاشمئزاز من كل الحياة التى عرفها ، وعاوده الغثيان العظيم الذى أصابه عقب خيبة أمله فى أحلامه ؛ كما شعر بسن حربة يمزق احشاءه وجرجر هذا الرجل تحت شجيرات الريحان منهوك القوى . ورغم ذلك كانت عيناه مفتوحتين . ونظرت إليه مريم المجدلية مرة أخرى ، ورأت أنه لم يكن المسيح . المسيح لم يقم من الأموات . لقد تبدد حماسه ونقاؤه الخارق وشبابه المستغرق فى الفكر . فشبابه أصابه الموات . أما هذا الرجل فهو فى منتصف العمر وقد نفض عن نفسه كل الأوهام واتسم بعدم اكتراث مروع وتصميم يعجز الحب نفسه عن الانتصار عليه . هذا الرجل ليس بالسيد الذى عبدته كل هذه العبادة وليس ذلك الشاب الملتهب المنصرف عن الجسد الذى يعلى من شأن الروح فقد صار أقرب ما يكون إلى

العشاق الذين عرفتهم في الماضي ولكنه يختلف عنهم بقد أكبر من عدم الاكتراث بالأمور الشخصية وقدر أقل من الحساسية .

رأت المرأة هذا التغير ففقدت اتزانها واهتز حبها المتش والمتألم الذي بلغ حد العبادة والتقديس . هذا الرجل الذي قام من الأموات سدد ضربة قاضية ومميتة إلى الأحلام التي كانت تراودها .

قال لها : «ينبغي أن تنصرفي الآن . ولا تلمسيني فأنا في الموت . سوف أعود هنا مرة ثانية في اليوم الثالث . تعالي إذا شئت عند الفجر وسوف نتبادل الحديث» .

انصرفت المرأة وهي في حالة من الانزعاج والتهدم . ولكن عقلها نبذ مرارة الحقيقة عند انصرافها . واستحضرت في مخيلتها حالة النشوة والتعجب لأن السيد قام من الأمو ولم يعد ميتا . لقد قام من الأموات المخلص وصانع العجائب الذي يسمو بالأشياء إلى أرفع مرتبة ! وهو لم يقم من الأموات كرجل ولكن كرب طاهر ينبغي عليه ألا يلمس جسد بشر والذي سوف يرتفع إلى الفردوس وهو في حالة من الاستغراق . إن قيامته أعظم العجائب وأقربها إلى عالم الأشباح .

وفي نفس الوقت استجمع الرجل الذي ماتت قواه أخيرا ثم شق طريقه بالتدريج إلى بيت الفلاح والفلاحة وكان سعيدا برجوعه إليهما وابتعاده عن مريم المجدلية وعن مالها ، لأن الفلاحين عرفا خمول الدنيا وسوف يسمحان له بالراحة وسوف يمتنعان حتى ذلك الوقت عن ممارسة الضغط عليه .

كانت المرأة فوق سطح الدار تبحث عنه . وكانت تخشى انصرافه فقد أصبح وجوده في الدار في نظرها مثل الخمر الرقيقة الحانية . وأسرعت نحو الباب لتلقاه .

سألته : «أين كنت ؟ ولماذا انصرفت ؟» .

«كنت أتمشى في البستان حيث رأيت صديقا لي أعطاني قليلا من المال هذا المال من أجلك فخذيه .

ومد يده الناحلة التي تحمل المال الزهيد . هو كل ما استطاعت مريم المجدلية أن تعطيه إياه . ولمعت عينا زوجة الفلاح عند رؤية النقود إذ كانت النقود لديها شيئا نادرا ثم قالت «آه يا سيدي، هل حقا هذه النقود ملك لي ؟» .

أجاب : «خذيها واشتري بها خبزا لأن الخبز يعطي الحياة» .

بعدئذ رقد في الفناء مرة أخرى وقد أشعره بالغثيان إحسـ... بالارتياح لأنه أصبح وحيدا مرة أخرى . كان بإمكانه أن ... نفسه في حضرة الفلاح وزوجته . ولكن أصدقاءه لن يسمحوا له قط بالانفراد بنفسه . وفي شعوره بالأمان أصبح الديك ... عزيزا عليه وهو يصيح في حماسة الحياة العاجزة . فقد انتهى ... الأمر إلى الخضوع للادلال الدجم عن ربط رحله وتقييد حركته ... وفي ذلك اليوم نهضت الاتان تهز ذيلها تحت الحظيرة . ومـ... الرجل الذي مات جسده على الأرض منصرفا تماما عن الحيـا... بسبب شعوره بغثيان الموت في الحياة .

وأحضرت له المرأة خمرا وماء وكعكا حلو المذاق . وقام... بإيقاظه فأكل قليلا إرضاء لها . كان اليوم حرا . وجرجرت المرأ... كي تتمكن من خدمته فوقعت أنظاره على نهديها وهما يتحرك... بعيدا عن جسدها المتواضع الذي يكسوه ثوبها الواسع الفضفاض وعرف أنها تمنت لو أنه كان راغبا فيها . فهي لم تتجاوز مرحلة الشباب ولا تخلو من الحلاوة . ورغم أنه لم يعرف امرأة طيلة حياته فقد كان على استعداد لأن يرغب فيها لو استطاع ذلك . ولكن لم يكن في مقدوره أن يرومها رغم شعـ... الرقيق نحو جسدها المتواضع الناعم الملمس وهي في جلستـ... المجرمرة . كانت أفكارها ووعيها الشيء الوحيد الذي لم يستطـ...

خالطته والامتزاج به . كانت مسرورة وراضية بالنقود ، وأرادت أن تأخذ منه شيئا يفوق النقود . أرادت أن يحتضنها بجسده . لكن روحها الصغيرة كانت صعبة وقصيرة النظر وتجنح إلى التملك والاستحواذ كما كان جسدها يعتمل بقليل من الشراهة النهم ولا يختلج بالاجلال الرقيق نحو الهدية المرتدة إلى صاحبها لهذا كلمها كلمة هادئة ولطيفة ثم انصرف عنها فلم يكن في استطاعته أن يلمس الجسد الشخصي الصغير والحياة الشخصية الكائنة في هذه المرأة أو في غيرها من النساء فابتعد عنها دون أن يلوي عن شيء .

وبعد قيامته من الأموات أدرك أخيرا أن الجسد أيضا لديه حياة صغيرة وأن الحياة الأعظم تنبع وراءها . كان بكرا يحجم عن حياة الجسد الصغيرة الشرهة . ولكنه الآن عرف أن البكورة ليست إلا شكلا من أشكال الشره والنهم وأن الجسد يقوم من الأموات كي يعطي ويأخذ ويأخذ ويعطي دون نهم أو شره . الآن عرف أنه قام من الأموات من أجل المرأة أو النساء اللاتي يعرفن حياة الجسد الأعظم دون نهم في العطاء أو نهم في الأخذ فهو يستطيع معهن الامتزاج بأجسادهن ، ولكن كان عليه بعد أن مات أن يتحلى بالصبر عارفا أن هناك وقتا بل أبدية من الوقت . ولم تكن تحركه أية رغبة نهمة لا في إعطاء نفسه

للآخرين ولا في الاستحواذ على أي شئ من أجل نفسه ولاعرو فهو قد مضى .

ثم عاد الفلاح من عمله إلى داره وقال :

«يا سيد أشكرك على النقود ولكننا لا نريدها . وكل ما أملك هو ملك لله» وحزن الرجل الذى مات لأن الفلاح وقف هناك بجسده الشخصي الضئيل . وقد امتلأت عيناه باللؤم ولمعتا ببريق الامل في حصوله على مكافأة أكبر من المال في وقت لاحق . صحيح ان الفلاح استضافه مجانا معرضا بذلك نفسه لخطر عدم الحصول على أي مكافأة أو مقابل . ولكن الأمل الماثل فيه كان يتسم باللؤم . ومع ذلك فهذا ما جبل الانسان عليه . ولهذا فعندما تقدم الفلاح لمساعدته كي ينهض لأن الليل أرخى سدوله امر الرجل الذى مات بقوله «لا تلمسني يا أخي فأنا لم أصعد بعد إلى أبي » .

وسطعت الشمس الحارقة بروعة أعظم وأضفت لمعانا أكثر على الديك الشاب . ولكن الفلاح أحضر دوبارة جديدة وربط بها رجل الديك ، وهكذا أصبح الطائر سجينا . ولكن لهيب الحياة في صدره توهج إلى حد الاحتراق ، ولهذا نظر الديك شذرا وباستعلاء إلى الرجل الذى مات . فابتسم هذا الرجل له ناظرا إليه بإعزاز كبير ومخاطبا إياه بقوله «لا ريب إنك صعدت إلى الأب» ورد الديك الغاضب عليه بصرخة أطلقها .

وفي فجر اليوم الثالث ذهب الرجل إلى البستان حيث استغرق في التأمل وهو يفكر في حيوة الجسد الأعظم التي تتجاوز الحياة الشخصية الضيقة والضئيلة . ولهذا جاء عبر الساتر الكثيف المكون من الغار وشجيرات الريحان بالقرب من الصخرة . ورأى ثلاث نسوة بالقرب من القبر كانت مريم المجدلية واحدة منهن والأخرى تلك المرأة التي قال إنها أمه . أما الثالثة فكانت امرأة يعرفها باسم حنة . تطلع إلى فوق فرأهن جميعا ووقعت أبصارهن عليه فدخل الخوف في قلوبهن .

وقف مشدوها على مبعدة عارفا أنهن جئن إلى هناك ليطالبن بجسده . ولكنه لن يعود إليهن بأي حال من الأحوال . وشاهد شحوبهن في ظلال الصباح الداكن الذي ينثر قطرات المطر . فأدار رأسه بعيدا عنهن ولكن مريم المجدلية أسرعت نحوه قائلة :

«لم أحضرهن فقد جئن من تلقاء أنفسهن . انظر ، إني جلبت لك نقودا ! لم لا تتحدث إليهن »

وقدمت إليه بعض القطع الذهبية ، فتناولها قائلا .

«هل لى أن أحتفظ بهذه النقود ، سأحتاج إليها ، لا أستطيع أن أتحدث إليهن لأنى لم أصعد بعد إلى الأب . ويجب على أن أترككن الآن .

سألته مريم المجدلية «إلى أين تذهب؟» .

نظر إليها ، فأدرك أنها تحاول وضع يدها على الرجولة في الرجل الـــــذى كان قد مات . تلك الرجـــولة التى عرفتها في شبابه ورســـالته وطهارته وخوفه وفي حياته الصغيرة وعطائه دون أخذ .

قال «يجب أن أذهب إلى أبي»

صاحت وهي تتلفت حولها وتشعر بأنها لا تزال تستعذب الحسرة والكمد القديم

«وتتركنا ؟ هذه هي أمك!» .

«ولكن يجب أن أصعد الآن إلى أبى » قال هذا ثم تراجع بين الشجيرات والتفت بســـرعة وابتعد وهو يحدث نفسه قائلا : «لست الآن أنتمي إلى أحد ولا تربطني بأحد صـــلة . ورســـالة الإنجيل قد تركتني . يا للحســـرة فأنا لا أستطيع حتى أن أصنع حياتي وما يتعين علىّ إنقاذه .. وفي مقـــدوري أن أتعلم كيف أكون بمفردي ».

ولهذا رجع إلى دار الفلاح وزوجته وإلى الفناء حيث كان الديك الشاب مربوطا من رجله بدوبارة . وكان لا يريد أن يرى أحدا ، لقد وجد أنه من الأفضل له أن يبقى بمفرده لأن وجوده بين الناس أشعره بالوحدة والوحشة .

وضمدت الشمس وطيب الربيع الناعم جروحه . حتى الجرح المفتوح في أحشائه الناجم عن خيبة أمله في أحلامه وآماله بدأ يندمل . وأيضا تماثلت إلى الشفاء حاجته إلى الرجال والنساء ورغبته المحمومة في الوصول إليهم وفي أن يقوموا بخلاصه . وكل الذي جاء نتيجة اتصاله بالمس مع البشر سيبقى من الآن فصاعدا أن يجئ دون عدوان أو تجاوز أو ارغام . قال لنفسه : «لقد حاولت إرغامهم على العيش فأرغموني على الموت . وهذا هو حال الإرغام دائما إن الارتداد يعوق التقدم . والآن حان وقتي كي أكون وحيدا .

ولهذا توقف عن الذهاب إلى البستـان ، وظل راقدا بلا حراك وهو يتطلع إلى الشمس أو يتمشى عند العسق عبر منحدرات الزيتون وسط أعواد القمح الخضراء التى نمت في كل يوم مشمس شبرا أعلى مما كانت عليه ، ودائما ما فكر هكذا «يا له من شئ طيب أن أكون قد أوفيت رسالتي وتجاوزتها . الآن أستطيع أن اكون بمفردي وأترك جميع الأشياء لذاتها . لتصبح شجرة التين

جرداء إذا شاءت ذلك ، وليبق الأثرياء على ثرائهم . إن طريقي يخصني وحدي .

وتجمعت الأوراق الوارفة على شجرة التين ، ودماء الشجرة الوضاءة الرقراقة الخضراء يسري في عروقها . وصار الدبل الشاب أكثر لمعانا وتلألؤا مع زيادة سخونة الشمس المحرقة وغربت الشمس أكثر وأكثر في بهاء وجلال عن الهواء الأحمر الوجيب والموشى بالذهب . وكان الرجل الذي مات واعيا وعيا تاما بكل شئ . وفكر هكذا

«ليست الكلمة إلا حشرة همجة صغيرة تلدغ في المساء . إن الانسان تعذبه الكلمات التي تشبه حشرات الهمجة الدقيقة وهي تتبعه حتى جوف القبر . ولكنها لا تستطيع أن تذهب أبعد من القبر . لقد مررت الآن على المكان حيث تعجز الكلمات عن اللدغ وحيث يصفو الهواء . ليس هناك ما يقال وأنا وحيد داخل حدي الخاص بي الذي يكون الجدران التي تحيط بكل أملاكي» . وهكذا برأ من جراحه وتمتع بخلود حياته الخالية من التوتر لأنه أسقط عنه وهو في القبر تلك الخية الخانقة التي نسميها الحرص ، لأنه ترك في القبر نفسه التي تحاول جاهدة والتي تحرص وتؤكد ذاتها . وشفيت نفسه التي لا تهتم وأصبحت متكاملة داخل جلده

وابتسم لنفسه في انفراد خالص هو نوع من الخلود . عندئذ قال لنفسه

«سوف أجوب الأرض والتزم الصمت . فلا شيء أكثر مدعاة للعجب والإدهاش من أن يكون المرء وحيدا في عالم الظواهر الذي يمور بالحياة الصاخبة ، ولكنه رغم ذلك عالم قد انفرط عقده . إنني لم أر هذا العالم فقد أعماني عنه ما أشعر به من اضطراب داخله . سوف أجوب في حركة عالم الظواهر لأن لا شئ يتركني وحيدا وحدة خالصة سوى حركة جميع الأشياء وسط نفسها ».

واستغرق في ذاته يتأملها ويستكنهها ، وقرر أن يكون طبيبا مداويا لأنه لا يزال يمتلك القوة التي تشفي أي إنسان أو طفل يثير عطفه ويلمس شغاف هذا العطف . ولهذا قام بقص شعره وحلاقة لحيته طبقا للموضة اللائقة ، وابتسم لنفسه . واحضر لنفسه أحذية والوشاح اللائق كما لبس اللباس اللائق فوق رأسه فخبأ كل الندوب الصغيرة فيه . قال الفلاح

«يا سيد هل تنصرف عنا ؟»

«نعم فقد جاءت ساعتي كي أعود إلى الناس» .

وأعطى الفلاح قطعة من النقود وقال له

«أعطني الديك الذي هرب منك والمربوط الآن من رجله لأني سوف آخذه معي» .

وهكذا أعطى الفلاح الديك للرجل الذي مات مقابل قطعة من النقود . وعند انبلاج الفجر خرج الرجل الذي مات ليبدأ رحلته في عالم الظواهر ويكمل في وحدته ووحشته في قلب هذا العالم الذي فيما مضى استغرق فيه أكثر من اللازم ، وبعدئذ قضى نحبه والآن يتعين عليه أن يعود وأن يكون وحيدا وسطه . ورغم ذلك فإنه حتى الآن لم يذهب لوحده تماما ، لأنه عند انصرافه حمل الديك تحت إبطه بينما كان ذيله يرفرف ، وقد اشرأب رأسه في اضطراب لأن الديك أيضا خرج ليغامر لأول مرة في عالم الظواهر الفسيح المشتمل كذلك على حركة مجموع الديوك . وذرفت المرأة الفلاحة عبرات قليلة ، ولكنها دخلت الدار بعد ذلك لتتفحص مرة أخرى وهي الفلاحة – قطع النقود . وبدا لها أن بريقا مدهشا ينبعث من قطع النقود .

واستمر الرجل الذي مات في سيره وكان يوما مشمسا والتفت حوله وهو يمضي في طريقه ووقف جانبا عند مرور القطار المزدحم بالركاب والمتجه إلى المدينة وقال لنفسه

«عجيب هو عالم الظواهر ، فهو يجمع بين القذارة والنظافة في آن واحد ! إني لم أتغير ورغم ذلك فأنا مفكك الأجزاء والجسد

تمور في تنوعها . لماذا أردت من الحياة أن تمور على نفس الوتيرة . إنه لشيء مؤسف ! لقد كنت ألقي المواعظ عليهم ومن المحتمل أن تتحول الموعظة إلى كتلة من الطين وأن تغلق النافورات أكثر مما تغلقها تلاوة مزمور أو الشدو بأغنية . إنني ارتكبت خطأ فقد ظننت أنهم أعدموني بسبب إلقائي المواعظ عليهم غير أنه لم يكن باستطاعتهم في النهاية أن يقوموا بإعدامي ، لأنني الآن قد قمت من الأموات في وحشتي وورثت الأرض لأني لا أطالب لنفسي بأي حق فيها . وسوف أكون وحيدا في فورة جميع الأشياء . وفوق كل شيء وقبل كل شيء سوف أشعر أبدا بالوحشة والانفراد ولكن يجب علي أن ألقى بهذا الطائر في الثورة التي يمور بها عالم الظواهر لأنه يتعين عليه ركوب الموجة . كم هو يتدفق بدفء الحياة ! وسريعا سوف أتركه في مكان ما بين الدجاجات ، وربما أقابل في إحدى الأمسيات امرأة تستطيع غواية جسدي الذي قام من الأموات وتتركني بالرغم من ذلك في انفرادي لأن جسد رغباتي قد مات . ولست ألمس أحدا في أي مكان . ولكني كيف أعرف ؟ فكل شيء على أقل تقدير هو الحياة . ويلمع هذا الديك بالانفراد البراق رغم أنه يستجيب لإغراء الدجاجات . وسوف أسرع للوصول إلى تلك القرية الواقعة

على التل امـامـى . لقـد دب فى الاعـيـاء والوهن . وأريد ان ـمو عينى فلا ارى شيئا » .

وأسرع قليلا تحدوه الرغبة فى الانتهاء من سيره ، حتى لحو رجلين يمشيـان فى بطء ويتبـادلان الحـديث ، وتذكـرهمـا لانه عرفهما اثناء حياته التى اضطـلع فيها برسالته . وحياهما . لكنه لم يكشف عن نفســـه فى العمق فلم يتعـرفا عليه ، قال لهما «مـاذا حـدث للرجل الـذى قال إنه سـيصـير ملكا والـذى قـر من أجل ذلك ؟»

فردا عليه بريبه وشك

«مـاذا يدعوك للاستفسـار عنه ؟» .

«كنت اعرفه وفكرت كثير فى أمره» .

أجابا قائلين «إنه قـام من الاموات» .

«إنه ين هو وكيف يعيش؟» .

«لا نعرف لأنه لم يـكشف لنا عن هذا الامر . ومع ذلك قـ من الاموات وسوف يصـعد إلى الاب بعد وقت قصير» .

«إنه ! وأين يوجد الآب»

«انت لا تعرف فـلابد وانك من غيـر الـيهود ! الأب مـوجـ لسماء فوق السحاب وقمة السمـاء»

«وهل هذا حقيقى ؟ إذن كيف سيصعد ؟»

«انه سيصعد فى مجده مثلما صعد النبى إليا»

«حتى إلى السماء ؟» .

«نعم إلى السماء» .

«إذن فهو لم يقم من الأموات بجسده ؟» .

«بل قام بجسده»

«هل سيأخذ جسده معه إلى السماء» ؟

«الأب الذى فى السماوات سوف يرفعه» .

وأمسك الرجل الذى مات عن الكلام لأن كلماته قد انتهت ، ولأن الكلمات تلد الكلمات تماما مثلما تتكاثر بعوضة البرعشة . ولكن الرجل بادر بسؤاله

«لماذا تحمل ديكا معك؟» .

«إنى أقوم بالشفاء . وهذا الديك يتحلى بالفضيلة» .

«او لست تؤمن ؟» .

«إنى أؤمن بأن الطائر مفعم بالحياة والفضيلة» .

وساروا بعد ذلك فى صمت ، شعـر بأنهم يكرهون إجابته . فابتـسم لنفـــسه لأن الظـــاهره الخطرة فى العـــالم تتمـثل فى

رجل تتسم معتقداته بالضيق وانتفاء الرحابة وينكر حق جاره في أن يترك وشأنه . وعندما جاءوا إلى أطراف القرية وقف الرجل الذي مات ساكنا لا يتحرك في عتمة المساء . وقال يصدد العجوز الهرم

«ألستما تعرفاني ؟»

فصاحا بخوف . «يا سيد ! » .

أجاب وهو يطلق ضحكة رقيقة وناعمة «نعم» ثم استدار بعيدا هابطا في اتجاه إحدى الحارات الجانبية . واختفى خلال أسفل الحائط قبل أن يدركا ذلك .

ثم جاء إلى حانة تجمعت في فنائها صغار الحمير . وطلب بعض الفطائر فصنعوها له . ونام تحت حظيرة ولكنه استيقظ في الصباح على صياح الديكة المرتفع وسمع صوت ديكه يجلجل في أذنيه . ثم رأى ديك الحانة يتقدم من أجل القتال مع ديكه تتبعه جماعة كبيرة من محظياته من الدجاج . فهب الديك الذي يحمله الرجل الذي مات قافزا لتبدأ المعركة بين الديكين . وجرى صاحب الخان ليفقد ديكه ولكن الرجل الذي مات قال له

«إذا انتصر ديكي فسوف أعطيك إياه وإذا خسر فسوف تأكل لحمه » .

وهكذا حارب الطيران بشراسة وتمكن ديك الرجل الذي مات من قتل الديك العادي الموجود في فناء الحانة . وعندئذ قال الرجل الذي مات إلى ديكه الشاب

أنت على أقل تقدير قد وجدت مملكتك كما وجدت إناثا لجسدك . وسوف يكتسب انفرادك روعة تزيد من رونقها إغراء دجاجاتك» .

ثم انصرف تاركا ديكه هناك واستمر في السير مسافة أبعد داخل عالم الظواهر المتكون من تعقيدات واسعة من التشابكات والاغراءات ، وسأل نفسه سؤالا أخيرا .

«من أي شيء يمكن تخليص هذه الدوامة المحيرة للألباب التي لا تنتهي ثم ماذا يؤدي إليه تخليصها؟» .

ومضى لحال سبيله وكان بمفرده ، غير أن طريق العالم تجاوز التصديق عند مشاهدة التشابك الغريب للعواطف المتأججة والظروف والإرغام في كل مكان ولكنه رأى على الدوام أرق الارغام المروع . إن ما يبعث الناس على الجنون هو الخوف .. الخوف الهستيري من الموت . ولهذا فقد تعين عليه دائما أن يتحرك إلى الإمام لأنه إذا مكث هناك فسوف يقوم جيرانه بربط خيوطهم وبلطجتهم حول رقبته . لم يكن هناك ما يمكن لمسه لأن الجميع في تأكيد ملتاث للأنا أرادوا

أن يفرضوا الارغام عليه وأن ينتهكوا وحدته النابعة من داخل نفسه . إن جنون المدن والمجتمعات والزرافات والجماعات ان تفرض الارغام على الإنسان الفرد بل على جميع الناس بدون استثناء . وجنون الرجال والنساء على حد سواء يكمن في خوفهم الذاتي من ضمائرهم . وفكر في رسالته التي حملها بنفسه وكيف أنه حاول أن يفرض الحب عنوة على جميع البشر . وعاد إليه الإحساس القديم بالغثيان لأنه لا تقوم لصلة البشر بالبشر قائمة دون محاولة ناعمة ودقيقة لفرض الارغام لقد سبق أن أرغم حتى الموت . وتفجر الغثيان بسبب جرحه القديم من جديد ونظر مرة أخرى إلى العالم بنفور وهو يخشى ملمس هذا العالم الدنيء.

(٢)

هبت الريح باردة وعاتية من الأرض الداخلية .. من الثلوج عبر المطمورة في لبنان .. ولكن المعبد المواجه للجنوب والغرب في اتجاه مصر كان في مقابلة شمس الشتاء الرائعة وهو يسير في الانحدار المؤدي إلى البحر . وغمر الدفء والتوهج المساحة بين أعمدة الخشب المطلي . ولكن البحر كان خافيا عن الأنظار بسبب الأشجار ، رغم سماع طرطشة الماء بين حفيف شجر الصنوبر واكتسب الهواء اللون الذهبي في فترة بعد الظهيرة . ووقفت المرأة التي تقوم على خدمة ايزيس في ردائها الأصفر وتطلعت بناظريها الى المنحنيات الشديدة-الانحدار المفضية إلى البحر حيث اكتسبت أشجار الزيتون لون الفضة تحت وطأة الريح مثل لون طرطشة الماء المتطايرة كانت بمفردها باستثناء الإلهة التي كانت معها . وفي فترة بعد الظهيرة الشتوية وقف الضوء منتصبا ورائعا بعيدا عن البحر غير المرئي غامرا تلال الساحل . وذهبت تلك المرأة في اتجاه الشمس خلال أشجار الصنوبر والبلوط الدائم الخضرة في منطقة البحر المتوسط والتي أقيم المعبد في وسطها على لسان صغير من الأرض مغطى بالأشجار يقع بين خليجين .

سارت مسافة قصيرة للغاية وقفت بعدها بين جذوع أشجار الصنوبر الواقعة على الأطراف على الصخور التي تلاطمت بها امواج البحر وشفطتها في مواجهة المكان المكشوف . حيث تلألأت شمس الشتاء في مجد وعظمة . كان البحر داكنا يكاد يكون شديد الزرقة وينحسر بعيدا عن الأرض بتوجه البياض . وجاءت يد الريح لتمسحه بالظلال على نحو غريب وهي تمسح شجر الزيتون بالفضة على المنحدرات . ولم يكن هناك أي قارب في عرض البحر .

كانت القوارب الثلاثة قد تم سحبها على الحصى الأملس الشديد الانحدار الموجود في الخليج الصغير بالقرب من البرج الرمادي الصغير . وبمحاذاة حافة الحصى الأملس امتد حائط مرتفع يحيط بحديقة تحتل الجزء المبسط القصير من الخليج الذي ارتفع على هيئة شرفات أعلى المنحدر الساحلي الشديد الانحدار . وهناك في أعلى الطريق قليلا ارتفعت دار منخفضة بيضاء داخل سور آخر تطل على البحر . وكانت الدار الفخيمة موحشة وحشة الساحل، وهي مثل بياضه ولكن على ارتفاع أكبر بكثير حيث احتلت شجيرات الزيتون الطريق مرة أخرى أمام أشجار الصنوبر . امتد الطريق الساحلي وهو يحافظ على ارتفاعه حتى توجد أعلى القنوات العميقة الصناعية المحفورة من أجل تصفية المياه المنحدرة في اتجاه الخلجان . وانهمرت على كل هذا في جلالها شمس يناير الساطعة في فترة بعد الظهيرة أو لعل هذا كله كان جزءا من الشمس العظيمة والوهج والمسادة ووحشة البحر الطاهرة والعمار الخالص .

وحرمز بين الصخور أعلى الماء الداكن المتارجح في صعوده وهبوطه اثنان من العبيد نصف عاريين وهما يعدان طهي الحمام لوجبة المساء . وقام العبدان بقطع رقبة حمامة حية زرقاء اللون

وتركا نقاط الدم تسقط بتركيز شديد في ماء البحر الذي تأرجح بين الارتفاع والانخفاض . كانا يقومان بتقديم بعض الأضحيات أو بتلاوة بعض التعاويذ . ووقفت كاهنة المعبد وهي تبدو صفراء وبيضاء وبمفردها كأنها زهرة النرجس الشتوية بين أشجار الصنوبر في شبه الجزيرة المحددة الصغيرة حيث يختبئ المعبد سرا . وكانت تراقب .

وأسرعت حمامة تجمع بين اللونين الأسود والأبيض والتي يفيض بياضها بالحياة مثل شبح هارب على سطح البحر الداكن المنخفض وانطلقت تلاحق الريح وهي تميل وتعتلي شجر الصنوبر وتحلق طائرة فوق هذه الأشجار لتبتعد عن المكان وتبدو ضئيلة مثل ذرة الغبار في الأرض الداخلية . وسمعت الكاهنة صوت صراخ الغلام عند الحديقة والبالغ من العمر سبعة عشر عاما ، ويرفع الغلام ذراعيه إلى السماء في غضب بينما ابتعدت الحمامة عنه ومد ذراعيه وهو عريان وغاضب وفي ميعة الشباب . ثم التفت وأمسك بالفتاة وقد اجتاحه غضب عارم ولكمها بقبضة يده الملطخة بدم الحمامة . ورقدت وهي تخبئ وجهها المرتعش السلبي . وأخذت المرأة المالكة لهما تراقب . وبينما هي تراقب إذ بأنظارها تقع على شخص آخر يراقب ... شخص غريب يلبس قبعة عريضة وعباءة رمادية من النوع المغزول داخل المنازل . وهو رجل ذو لحية داكن

الشرة يقف على الطريق المغطى بالحصى والقائم على صخرة في عنق أرض المعبد الموجود في شبه الجزيرة . ورأته سيدته تطاير عباءته الرمادية الداكنة في الهواء ورآها على الصخور مثل زهرة نرجس تجمع بين البياض والصفار بسبب تطاير فستانها المصنوع من الكتان في الهواء تحت وشاح من الصوف . وراقب كلاهما العبدين

وفجأة توقف الغلام عن ضرب الفتاة وجرمز من فوقها ولمسها محاولا أن يجعلها تتكلم . ولكنها رقدت خامدة تماما ووجهها إلى أسفل على الصخر الناعم . وأحاطها بذراعيه ورفعها . غير أنها انزلقت على الأرض كأنها جثة هامدة . ولكن السرعة التي انزلقت بها تنم على أنها لم تكن ميتة على الإطلاق . وفي يأس امسك الغلام بها من ردفيها وشدها إلى صدره وقلبها . بدت خامدة كما بدت كل قواها منحصرة في كتفيها . ودون وعي منه وبإصرار قلبها كي يعدلها . ثم دفع كلتا يديه بين فخذيها ليبعد الواحد منهما عن الآخر . وفي برهة اعتلاها بذلك الجنون الأعمى المذعور الذي يشعر به أي مراهق لهيب اولى عواطفه . واهتز جسده الشاب بسرعة ملتاثة وهو يرقد عاريا على جسدها لا يبصر لمدة دقيقة . ثم همد جسمه تماما كما لو كان الموت قد أصابه .

ثم رفع رأسه متلصصا في رعب . نظر من حوله متلصصا ونهض ببطء على قدميه وهو يعدل من غطاء حقويه المهلهل . وبعدئذ رأى على الصخور البعيدة سيدته كاهنة ايزيس . وما ان وقع بصره عليها حتى نفض كل جسمه في خوف . ثم في حركة غريبة ذليلة وجائعة سار بخطى قصيرة كالأعرج نحو باب الحائط .

والتفتت الكاهنة بعيدا . العبد ' ليتولى المشرف عليهم أمر مراقبتهم . لم تظهر هذه الكاهنة اي اهتمام . وذهبت ببطء خلال اشجار الصنوبر للمرة الثانية وعادت إلى المعبد القائم في بقعة صغيرة مكشوفة وخالية من الأشجار .

في وسط اللسان الارضي . كان معبدا صغيرا مصنوعا من الخشب مدهونا باللون البني والأبيض والأزرق ويوجد أمامه أربعة أعمدة خشبية ارتفعت على قمة مثل سيقان براعم زهرة اللوتس المصرية المنتفخة وهي تسند السقف وايضا تسند زهرات اللوتس المفتوحة ذات النتوءات الحادة الرؤوس الموجودة في الافريز الخارجي الذي استدار حول التجويف و بين سلمين منخفضين إلى المنصة الموجودة امام العمدان وكانت الغرفة خلف العمدان مفتوحة . وهناك انتصب مذبح منخفض من الحجر وفي تجويفه قليل

من الحـــمرات وأيضـا بقعـــة الــــدم الـداكن في تحـوسـه الأخير

كانت تعرف المعبد معرفة جيدة فهي التي شيدته على نفقتها الخاصة واحاطته برعايتها لمدة سبعة أعوام . هناك وقف المعبد بلونيه البني والأبيض مثل زهرة في البقعة الصغيرة المقفرة ، والخالية من الأشجار تـوازره اشجار بلوط سوداء تقريبا . تغيب الخضرة عنه . وكان ظل بعد الظهيرة يغطي بالفعل قواعد الأعمدة .

ودخلت ببطء وهي تمر عبر الغرفة الداخلية المعتمة التي يصيبها لهب مصباح زيت معطر . ومرة أخرى قامت المرأة باغلاق الباب كما انها قامت مرة أخرى بالقاء قليل من حبات البخور على موقد النار أمـــام الإلهـــة ومـرة أخرى جلست أمام البـ في الظلام الذي كاد يسود كي تفكر وتطلق بعيدا في احلام الآلهة .

كانت إيزيس ، لكنها ليست ايزيس التي انجبت حوريس . كانت إيزيس التي مات بعلها .. ايزيس الباحثة . ورفعت الإلهة في مرمرها المطلي وجهها . ثم حطت وإحدى فخذيها تتقدم الفخذ الأخرى ، وقد بدت عن فستانها مفهمة واهنة وألم فراقها عن زوجها واشغالها بالبحث عنه بعنصرها . كانت تبحث عن أشلاء

اوزيريس الممزقة الميتة والمبعثرة على هيئة قطع مبعثرة في كل أرجاء العالم الفسيح . وتعين عليها أن تعثر على يديه وقدميه وفخذيه ورأسه وبطنه وأن تقوم بجمع هذه الأجزاء وتطوى ذراعيها حول الجسد بعد إعادة تجميعه حتى يدب فيه ثانية دفء الحياة فيستطيع احتضانها وإثمار رحمها . واستمر البحث بشوقه وألمه القريب على مدى اعوام بينما رفعت حلقها ونظرت بعينيها الفاترتين بالداخل في نشوة معذبة ناجمة عن البحث وظهرت سرتها الرقيقة تتوسط بطنها الذي تتفتح براعمه خلال فستانها الواهي الذي يحيط به حزام ظهرت بسؤالها الأبدي والجاف بحثها في الطلب . وخلال الأعوام عثرت على أشلائه قطعة قطعة . عثرت على القلب والرأس وجميع أطراف الجسم . ومع ذلك فهي لم تجد الحقيقة الاخيرة والحل النهائي الذي تستطيع عن طريقه الولوج إليه ... ذلك الحل الذي لا تستطيع بدونه أن تجعله يعود إليها لأنها كانت ايزيس زهرة اللوتس الرقيقة والناعمة . كانت الرحم الذي ينتظر مغمورا وعلى هيئة برعمة تنتظر لمسة تلك الشمس الأخرى الداخلية التي تقبض اشعتها من حقوى اوزيريس الذكر .

كان ذلك هو السر الذي قامت الكاهنة بمفردها بالحفاظ عليه لمدة سبعة أعوام منذ أن كانت في العشرين من عمرها حتى الآن

عندما بلغت السابعة والعشرين . وفيما مضى عندما كانت صغ... عاشت في أرجاء كثيرة من العالم . في روما وأفسوس ومصر فقد كان والدها واحـدا من ضبـاط أنطـونيو ورفاقه ، وحا... مع انطونيو ووقف بجانبه عنـد مقتل يوليـوس قيصر وظل ... لأنطـونيو حتى الأيـام التي عـرف فيها العار . ثم عاد ... أخرى عبر آسيا عندما غضبت عليه رومـا وانتهت حياته بمعا... في الجبال الواقعة وراء لبنـان . وانسحبت أرملته لا تأمل في نيل الحظوة لـدى أوكتافيوس وتعيش على ممتـلكاتها على السـاحل الواقع أسـفل جبال لبنان آخذة معهـا ابنتها بعد... عن العـالم وهي فتاة جميلة وغير متزوجة في التاسعة عشرة ... عمرها .

وفي شبابها تعرفت لفتاة بيوليوس قيصر فسعرت بالاحـ... والانكماش أمام ضراوته لشبيهة بضراوة النسر . غير أن ... ذا الطبيعة الذهبية جلس معها لمدة نصف ساعة مرات كثيرة في روعة أطراف جسده العظيمة ورجولته المتوهجة . وتحدث ... عن الفلسفات والآلهة لأنه كان من طفولته واقعا تحت سحر ... بالرغم من سخريته منها وانه سيبها في زهوه وغروره . ... أنطونيو قال لها

«لقد ضحيت بيمامتين من أجلك ، وقدمتهما إلى فينوس إلهة الجمال لأنى أخشى أنـك لا تقدمين أية ضحايا إلى هذه الآلهة الحلوة . وحذارى من الاسـاءة إليها . تعالى وحدثيني عن السبب في ان زهـرتك تسرى فيها البرودة من الداخل إلى هذا الحد ؟ ألم يخترمها شعاع أو نظرة أبدا ؟ تعالى فالعذراء ينبغي ان تتفتح للشمس عندما تميل الشمس نحوها لتربت عليها وتلاطفها .»

وضحكت عينا أنطونيو الواسعتان واللامعتان وهو ينظر إليها ليجعلها تستحم في توهجه . وشعرت بوهج جمال رجولته الأثير إلى القلب كما شعرت بحبه يغسل كل اطرافها وجسدها . ولكن الأمر كان كما قال ، فقد كانت زهرة رحمها تميل إلى البرودة، بل أنها كادت تكون باردة . ومن ثم تركها أنطونيو وشأنها لأنه كان يبجل والدها الذي أحبها .

كان ذلك هو الحال دائما . فقد رأت رجالا كثيرين من الشباب والكهول . وبوجه عام أحبت الكهول أكثر مما أحبت الشبان لأنهم كانوا يتحدثون إليها باخلاص ودون أن يتحرك لهم ساكن ، وأيضا دون أن يتوقعوا منها أن تتفتح مثل زهرة تغمرها شمس رجولتهم . وذات مرة طرحت علي فيلسوف السؤال التالي «هل مكتوب على النساء أن يولدن كي يسلمن إلى الرجال ؟» فأجابها

الرجل العجوز «نادرات هن النساء اللاتى ينتظرن مجئ الرجل الذى ولد من جديد لأن زهرة اللوتس ، كما تعرف لا تستجيب لكل حرارة الشمس الساطعة ، ولكنها تحنى رأسها الخفيء الذاكر فى الأعماق ولا يتحرك لها ساكن حتى تشرق فى الليل احدى الشموس النادرة غير المرئية المقتولة والتى توقفت عن النبض والسطوع بين النجوم فى الأرجوان غير المنظور ، ومثل زهرة البنفسج تبعث أشعتها الأرجوانية النادرة تتدد بها الظلمة ، وتستجيب زهرة اللوتس إلى هذه الأشعة وتبدى عنها حركة شبيهة بحركة المرء عندما يكون واقعا تحت تأثير التدليل وتنهض فى فوق خلال فيض الطوفان وترفع رأسها المختفى وتفرش أوراقها وتنضج باتساع لا تعرفه أية زهرة أخرى وتنشر أشعة بركتها الحادة وتقدم أعماقها الذهبية الناعمة التى ليس لها مثيل فى أية زهرة أخرى كى يخترقها الفيض البنفسجى الذاكر للشمس التى ماتت ويعشت دون ضجة أو عجيج ولكن زهرة اللوتس لا تتحرك أو تستجيب ، فضلا عن أنها لن تستجيب ابدا لنهار شمس أنطونيو الذهبى القصير التى تميل إلى الاستعراض والزهو بنفسها . كما أنها لا تستجيب لشمس القوة الشتوية القاسية المتمثلة فى يوليوس قيصر . هذه الشموس فقط هى التى تفتح البراعم عنوة واقتدار . آه ! إنى أقول لك

انتظرى من يولد من جديد وانتظرى البرعم الساكن حتى يتحرك ويتفتح .

وهكذا انتظرت لأن جميع الرجال كانوا إما رجالا أو ساسة فى زمن الرومان يؤكدون ذواتهم ، وتظهر عليهم امارات الرجولة والروعة ، فى حين أنهم كانوا ينسمون بخسة داخلية ويعانون من النقص . وتركتها لحالها كل من روما ومصر على حد سواء دون تهيجها أو استثارتها . وحافظت المرأة على أنوثتها فهى لا تقبل تسليم نفسها من أجل وهج ظاهرى أو تتزوج لدواعى المنفعة بل سوف تنتظر حتى تبدأ زهرة اللوتس فى التحرك فى أحشائها

وبعدئذ عثرت المرأة على أيريس فى مصر فباحت إليها بسرها وأحضرت ايزيس إلى شواطئ صيدا وعاشت معها تقتسمان سر البحث فى حين أن والدتها التى أحبت تسيير أمور العالم تمتعت بحرية إدارة الضيعة الصغيرة وشئون العبيد .

وعندما استفاقت المرأة من فكرها ونهضت كى تؤدى الطقس الأخير نحو ايزيس ملأت المصباح بالزيت وتركت المحراب بعد أن أوصدت الباب . وكانت الشمس قد غربت بالفعل فى العالم

الخارجي وسرت برودة الشفق الشديدة بين همهمة الأشجار ...
استمرت في الهمهمه رغم انكسار حدة الريح .

ومن ركن سلالم المعبد ظهر رجل غريب يلبس قبعة عريضه داكنة اللون . كان ذا وجه قمحي ولحية مدببة سوداء . وقال للمر... التي وقفت أعلاه في وشاحها الأصفر على أحد سلالم الـ... بجوار عمود مطلي باللونين البني والأبيض «آه يا سيدتي ... ابتهل إليها أن توفر لي مكانا احتمي فيه .» كان وجهها مستبد... وشاحبا بعض الشئ كما كان شعرها الأشقر في لون الـ... مربوطا تحت شبكة رقيعة مصنوعة من الذهب . ونظرت من ... إلى الرجل الشريد بعدم اكتراث . وكان نفس الرجل الذي سبـ... لها أن شاهدته وهو يراقب العبيد .

سألته «لماذا نزلت من الطريق ؟»

«رأيت العبد مثل زهرة شاحبة على الساحل فأردت أن استريـ... بين الأشجار الموجوده في هذه الناحية إذا أذنت بذلك السـ... القائمة على خدمة الإلهة .»

قالت مجيبة عن سؤاله الأول . «إنها ايزيس الناحتة» .

فأجاب : «عظيمة هذه الإلهة» .

واستمرت في النظر إليه مريبة وارتسمت ابتسامة واهـ... ونائية فى عينيه السوداوين المتطلعتين إليها رغم أن وجه...

كان أجوف بسبب ما كابد من ألم . وخمن الرجل الشريد قصدها وسخر منها .

قالت له «امكث هنا على الدرج حتى يأتي عبد ليقودك إلى المكان الذي تلجأ إليه»

«إنه لانعام من سيدة مصر» .

ونزلت إلى الممر الصحري الموجود في مرتفعات شبه الجزيرة وهي تلبس زوجا من الصنادل الموشاة بالذهب . كم كانت قدماها البيضاوان كالعاج ميتة وهما يظهران أسفل فستانها الأبيض . وأحنت رأسها الأشقر كالغسق فوق وشاحها الأصفر كالزعفران كما لو كانت تستغرق في تأملات لا تنتهي . كانت امرأة مستغرقة وكأنها مشبوكة في حلمها الخاص . وابتسم الرجل قليلا وهو نصف ممرور وجلس مرة أخرى على الدرج لينتظر جاذبا لفاحته حوله في برودة الشفق . وأخيرا ظهر عبد لابسا جلبابا رماديا خشنا .

قال العبد بقلة حياء . «هل تبحث عن الملجأ الخاص بسيدتنا ؟»

«لا مانع»

«إذن اتبعني» .

ويقله حياء فجائية يميز بها العبد عندما يقوم على خدمة شر اقتاد الرجل الشاب من خلال الأشجار وأسفلها إلى قناة صر الماء صغيرة تشق الصخرة حيث توجد في قلب الظلام شبه الس مغارة صغيرة تنتشر أمامها قمامة تتكون من نباتات شيطانيه طويلة في الأرض متروكة كانت تنمو في الأماكن المهجورة م الساحل تحت الصنوبر . كان المكان معتما ولكنه ساكن سكونا مطلقا وخال من صوت الريح وكان المكان لا يزال يفوح بر ... ماعز غير نفاذة .

قال العبد : «تم هنا لأن الماعز لم يعد يأتي إلى هذا المكا الشبيه بنصف الجزيرة ، والماء موجود هنا » قال هذا مشيرا ... الحوض الصخرى الصغير حيث اقترب نبات الخنشار الشد... بشعر عذراء من حافة ماء يتساقط بغزارة ملء الفم .

وانصرف العبد بعد أن أولى الرجل رعايته مظهرا احتقاره له ثم صعد الرجل الذى مات إلى حافة شبه الجزيرة حيث سمـ... ارتطام الموج . وبدأ الظلام يهبط بسرعة كما بدأت النجوم في الظهور . وانكسرت حدة الريح في الليل . وفي داخل الأرض سا... الظلام المنحني المجوف الشديد الانحدار في اتجاه الشكل الع... لقمة المترددة قبالة السماء شبه الصافية . فقط من آن لآخر تراقص لهب مصباح في اتجاه الدار الفخيمة

واتجه الرجل الذى مات إلى الملجأ حيث أخرج خبزا من جرابه المصنوع من الجلد وغمسه في ماء الينبوع الصغير وأخذ يأكل في هدوء . وبعد أن انتهى من أكله وغسل فمه ألقى نظرة أخرى على النجوم اللامعة في السماء الصحوة التي تهب الريح منها . وبعدئذ مد أعشاب الأرض المهجورة كي تكون مخدعه . وبعد أن أراح قميصه وصندله جانبا واستخدم جرابه كوسادة تحت خده استسلم للنوم لأنه كان مرهقا للغاية ، ولكن لسعة البرد أيقظته في أحيانا خلال الليل فقد غلبه التعب والارهاق . وفي الخارج تلألأت نجوم السماء واستمرت الريح في الهبوب وجلس مقفقفا من البرد وأسلم نفسه لنوع من الخدر . وعند دنو الفجر رقد لينام مرة أخرى .

وفي الصباح كان الساحل لايزال باردا في منطقة الظل رغم ارتفاع الشمس خلف التلال حين نزلت المرأة من الدار الفخيمة في اتجاه الإلهة . كان البحر جميلا وشاحبا في زرقته وجميلا في جدته . وأخيرا سكنت الريح . ورغم هذا فقد تكسرت الأمواج في بياضها على عدة صخور قاذفة بالحصى الأملس المتناثر في الخليج الصغير . ثم سارت المرأة ببطء نحو حلمها ولكنها كانت على وعي بوجود ما يقاطعها .

وبينما هي تتبع عنق الصخرة الصغيرة في طريقها إلى شبه

الحزيرة صاعدة المنحدر الكائن بين الأشجار والمؤدي إلى المعـ
ترل عبد ووقف منحنيا بخضوع وأدب . غير أن اتضاعه كاـ
تشوبه لمسة من قلة الحياء .قالت له : «تكلم !»

«سيدتي . إن الرجل موجود هناك ولايزال نائما . هل تأذن لي سيدتي بالكلام ؟»

أجابت وهي تشعر بالنفور من العبد : «تكلم !»

«الرجل يا سيدتي مجرم هارب ؟»

وارتسمت أمارات الانتصار على العبد وهو يتفوه بهذه الأخـ غير السارة .

سألته : «وما دليلك على هذا ؟» .

«انظري إلى يديه وقدميه ! لعـل سيدتي تأتي لإلقاء نظـ عليه» .

«خذني إلى مكانه» .

وقادها العبد بسرعة فوق أعلى التل وهبط بها إلى هاويـ سحيقة صغيرة الحجم . وهناك انحنى العبد جانبا وذهبت المر خلال فتحة في اتجـاه الكهف . وأخـذ قلبها يدق قليلا . ا يتعين عليها قبل كل شئ وفوق كل شئ أن تحتفظ بنقاوة المعـ وطهارته .

كان الرجل الشريد يغط في النوم واضعا خده على كيس نقوده وبلفيحته حول جسده . ولكنه قام بلوى قدميه العاريتين المتسختين احداهما بجانب الأخرى حتى تحتفظا بالدفء . وكان يقبض على يده أثناء نومه . ورأت الجروح في جلد قدميه الشاحب واللتين كان حزام الصندل يغطيهما في العادة ، كما رأت ندوبا في كف يده الطليقة .

لم تكن تهتم بالرجال وخاصة الرجال المنتمين إلى الطبقة السفلى الخانعة . ورغم ذلك نظرت إلى الوجه النائم . كان وجها أجوف متعبا يميل إلى القمح . ولكنها استطاعت بفضل كونها كاهنة الحياة الاعمق . بل لاح ضرب من الجلال في حاجبيه السوداوين وفي خديه الأجوفين الساكنين . ورأت أن شعره الأسود الذي تركه ينمو طويلا بخلاف عادة الرومان به لمسة من البياض عند السوالف كما نمت بعض خيوط شعره الأبيض في لحيته السوداء المدببة . ولكن هذا البياض كان يرجع إلى ما كابده من عذاب وسوء حظ . ولا غرو ، فقد كان الرجل في عز شبابه . فضلا عن أن جلده الذي اقترب لونه من لون العسق كان لايزال يحتفظ بلمعة الشباب الفضية . وكان عذابه الأليم ينطق بالجمال كما ارتسم الاخلاص الهادئ الغريب .. اخلاص الحياة البديعة الرائعة على كل القمح الناعم الرقيق الذي يكسو وجهه . وللمرة الأولى

ارتجف كيان المرأة عند رؤية الرجل ، كما لو كانت قد لمسها صرف لهب العيش البديع. وهي المرة الأولى التي تحس فيها بذلك مع استثار الرجال فيها قبل ذلك كل أنواع المشاعر . ولكن أحدا لم يلمسها أبدا بطرف الحياة الملتهب .

رجعت أسفل الصخرة حيث كان العبد في انتظارها . قالت «ليكن في معلومك أنه ليس مجرما بل مواطنا حرا جاء من الشرق . فلا تزعجه . ولكن أحضره إلى عندما يصحو من نومه قل له إني أريد الحديث معه» .

تكلمت في برود لأنها وجدت أن العبيد على اختلافهم يتسمون بشئ منفر بل مقرر إلى حد ما . فهم مطمورون في الحياة السفلى وشهيتهم ووعيهم الصغير يدعوان بعض الشئ إلى الاشمئزاز ومن ثم ربطت حلمها حول نفسها ، وذهبت إلى المعبد حيث قامت فتاة من العبيد باحضار ورود الشتاء والياسمين من أجل المذبح ولكنها في ذلك اليوم شعرت بالاضطراب حتى أثناء اعدادها للطقوس .

وارتفعت الشمس متلألئة فوق التل وسقط ضوؤها بفور على ساحل شبه الجزيرة الصغير الذي تغطيه أشجار الصنوبر كما

سقط الضوء على المعبد ذي اللون البني في جدة تتسم بطهارة البداوة .

وصحا الرجل الذي سبق أن مات من نومه ، ولبس الصندل كما لبس قبعته وعلق كيس نقوده تحت ملفحته . ثم خرج ليشاهد الصباح في كل رقته وفي كل لونه الذهبي الجديد . ونظر إلى زهرة النرجس الصغيرة التي اختلط فيها اللون الأصفر باللون الأبيض وهي تلمع وتتلألأ بين الصخور . ورأى العبد في انتظاره وكأنه خطر يتوعده .

قال العبد : «سيدي إن سيدتنا تود أن تتحدث إليك في معبد إيزيس» .

فقال الرجل الحائل «حسنا» .

ومضى في بطء وتوقف لمشاهدة البحر الأزرق الشاحب وكأنه زهرة يانعة هادئة لا يتحرك لها ساكن ، والحافات البيضاء الموجودة بين الصخور مثل الزهور النامية في الصخور البيضاء والمنحدرات الجوفاء تنحرف عن مسارها وهي ترتفع من الشاطئ يكسوها اللون الرمادي بسبب أشجار الزيتون والخضرة بسبب لون القمح في شبابه النضير حيث توجد الدار الفخيمة البيضاء الصغيرة . كان كل شئ جميلا ونقيا في صباح شهر يناير .

وسقطت الشمس على ركن المعبد وجلس على الدرج في صـ
الشمس وهو ينتظر بصبر ليس له حدود . عاد إلى الحياة ولكـ
ليست نفس الحياة التي تركها ، تلك الحياة التي يحياها صغـ
القوم وتكونها صغار الأيام التافهة . ولأنه ولد من جديد فقد كـ
في الحياة الأخرى التي تشكل اليوم الأعظم من الوعي
الإنساني. وكان بمفرده وبمعزل عن اليوم التافه الصغير لا
تربطه أية صلة بالناس العاديين ممن يراهم المرء كل يوم لم
يكن بعد قد قبل التحذير الذي لا رجعة فيه بألا يلمسه
أحد. وهو التحذيرالذي يفصل المولودين من جديد عن السوقـ
وكان الانفصال مطلقا . وجاء إلى المعبد فشعر بالسـ
يعمره .. ذلك السلام الوثني القوي الوضاء مع عداوة العبيد أسـ
المكان .

دلفت المرأة من خلال باب المعبد الداخلي المعتم آتية مـ
المحراب .. ووقفت هناك مترددة ، استطاعت أن ترى هيئة الرجـ
ذي البشرة القمحية وهو جالس في صمت مروع كان في نظرها
بمثابة نذير بالشر . وهو صمت يتسم في صدره بشيء يكاد يمـ
تهديدا لها .

وتقدمت نحو غرفة المعبد الخارجية . وشعر الرجل بقدومـ
فنهض واقفا . وخاطبته باللغة اليونانية فقال لها

«إن معرفتي باللغة اليونانية محدودة يا سيدتي . اسمحي لي بالتحدث بالسوريانية» .

سألته بلهجة منعجلة تناسب انشغالها بوصفها كاهنة ·

من أين جئت ؟ وإلى أين تذهب

أجاب ببطء · «جئت من الشرق فيما وراء دمشق الشام . وسأذهب إلى الغرب حيثما استطعت إلى ذلك سبيلا» .

ونظرت إليه بحياء وقلق مفاجئين . وسألته فجأة دون أية مقدمات «ولكن لماذا تحمل أمارات المجرمين ؟» .

سألها وهو حد منهك «هل كانت كاهنة الإلهة ايزيس تتلصص على أثناء نومي ؟»

قالت : «العبد هو الذي حذرني ولفت انتباهي إلى يديك وقدميك» .

تطلع إليها ثم قال

«هل تسمح لي كاهنة الإلهة ايزيس أن اودعها ثم أمضي لحال سبيلي؟»

وهبت ريح مفاجئة فرفعت لفاحته وقبعته فوضع يده ليمسك بطرفيهما فرأت مرة أخرى الجرح على يده البنية النحيلة .

قالت مشيرة إلى الجرح : «أنظر. هو ذا الجرح !»

قال «ومع هذا فإني أودعك وأقدم فروض الطاعة والولاء لايزيس . وشكرا لأنك سمحت لي بالنوم» .

كان على أهبة الانصراف . ولكنها تطلعت إليه بعينين زرقاوين مدهشتين .

قالت باندفاع مفاجئ : «ألا تود أن ترى إيزيس ؟»

عندئذ تحرك داخله شئ شبيه بالألم.

قال : «أين هي ؟»

قالت : «تعال !»

وتبعها إلى المحراب الداخلي في الظلمة التي تكاد تسود وعندما ألفت عيناه وهج المصباح الواهن رأى الإلهة تسير بخطى واسعة كأنها سفينة وتشعر باللهفة أثناء دوران حركة ردائ وانحنى أمامها تأدبا واجلالا . وقال «ما أعظم إيزيس فهي في بحثها أعظم من الموت . ورائعة هي مشيتها كامرأة ومدهش هدمها فجميع الرجال يقرطونك يا ايزيس فأنت في نظرهم من الأم .»

وسمعت كاهنة ايزيس هذه الكلمات ، وألقت البخور في مسـ النار ثم نظرت إلى الرجل وسألته

«هل أنت على ما يرام هنا ؟ وهل أحضرتك ايزيس إلى الدار كي تكون لها.»

تطلع إلى الكاهنة بدهشة وانزعاج .

قال «لست أدري»

ولكن المرأة كانت تفكر أن هذا الرجل هو أوزيريس المفقود . تحركت الخلجات في أعماق روحها . وكان اضطرابها شديدا . ولم يرغب في البقاء داخل المحراب الضيق المعطر الذي يسوده الظلام . وخرج مرة أخرى ليواجه الصباح والهواء البارد . وشعر باقتراب شئ منه كي يلمسه . وكان كل جسده نسيجا من الألم والنهي بألا يلمسه أحد . نعم بألا يلمسه أحد .

واتجهت المرأة إلى المكان المكشوف بشغف خائف . أما هو فقد انصرف بعيدا .

«آه . لا تذهب أيها الغريب . آه ، امكث قليلا مع ايزيس !»

ونظر إليها . إلى وجهها المتفتح كالزهرة كما لو كانت الشمس قد اشرقت في روحها . ومرة أخرى تحرك حقواه .

سألها : «هل ستؤخرينني يا ابنة ايزيس ؟»

أجابت : «أمكث ! فأنا على يقين من أنك أوزيريس !»

وضحك فجأة قائلا : «ليس بعد» . عندئذ نظر إلى وجهها المحزون ثم أردف بقوله «ولكني سأنام ليلة أخرى في كهف المعز إذا شاءت ايزيس هذا» .

وضمت كلتا يديه تغمرها السعادة الطفولية الخليقة بأن تشعر بها الكاهنة .

قالت : «أه سوف تغمر السعادة إيزيس !»

ولهذا هبط إلى الشاطئ في انزعاج قائلا لنفسه :

«هل أسلم نفسي لهذه اللمسة .. هل أسلم نفسي لهذه اللمسة . لقد قام البشر بتعذيبي حتى الموت بلمساتهم . ورغم هذا فإن كاهنة إيزيس هي شعلة الشفاء الرقيقة. انني طبيب ومع ذلك فإني لا أملك القدرة على الشفاء مثل الشعلة التي تملكها هذه الفتاة الرقيقة . فيالها من شعلة تلك التي تحظى بها هذه العذراء الرقيقة ! هي مثل نبات الكركم الشاحب الذي ينمو في الربيع كيف كنت لا أبصر هذا الشفاء أو نعمة جسد هذه المرأة الرقيقة الشبيهة بزهرة الكركم . يا لها من رقة . إنها أفظع وأجمل من الميتة التي متها ..»

ثم اصطاد من الصخور سمكا ذا أصداف واستمتع بأكله وتعجب من مذاق البحر البسيط . كان يهتز فرقا بداخله وهو يفكر :

«هل أجرؤ على لمس هذه المرأة ؟ إن هذا أكثر بعداً من الموت . لقد حسرت على أن اتركهم يلقون القبض عنى ويصدرون على حكما بالموت . ولكن هل اجرؤ على ملمس لحياة الرقيقة ؟ آه ! إن هذا أكثر صعوبة ..»

ولكن المرأة دخلت المحراب مرة أخرى وجلست مستغرقة في تملاتها الخالصة خلال الساعات لطوال وهي ترقب خطى الالهة التي تتحرق شوقا منحرفة عن مسارها وسرة بطنها الشبيهه بالبرعمة تشبه حانم على حشيش البحث البكر . واسلمت نفسها إلى فيض الأنوثة وتحريض إيزيس الباحثة .

وقرب غروب الشمس ذهبت إلى شبه الجزيرة لتبحث عنه فوجدت أنه قد ذهب ناحية الشمس مثلما فعلت هي في اليوم السابق جالسا على انصال الصنوبر الموجودة أسفل الشجرة حيث كانت تقف عندما رأته لأول مرة . واقتربت الآن ببطء وهي تهتز خوفا من أن يكون غير راغب فيها . ووقفت بجواره وهي مختفية عن الأنظار حتى رفع رأسه ليراها فجأة من تحت قبعته العريضة ورأى الشمس المتجهة إلى الغرب على شعرها المعقود . ورغم أنه ارتج عليه بسبب مرآه فإنه كان يتوقعها .

قال مشيرا إلى الدار الفخيمة القصيرة البيضاء على مجد أشجار الزيتون

«هل هذا بيتك؟»

«هو بيت أمي . هي أرملة وأنا ابنتها الوحيدة».

«وهل كل هؤلاء عبيدها؟».

«فيما عدا من أملك من عبيد»

وتقابلت عيونهما للحظة . سألها

«هل تجلسين أيضاً لرؤية غروب الشمس؟».

لم ينهض كي يتحدث إليها . فقد كابد من الألم أكثر مما ينبغي. وهكذا جلست على أنصال الصنوبر الجافة ذات اللون البني . وضمت وشاحها الذي كان في صفرة الزعفران حول ركبتيها وخرج قارب من الوهج المكشوف ليدخل الخليج الذي تكسوه الظلال . كان العبيد يرفعون شباكهم الصغيرة وصوت لغوهم يطفو على سطح الماء.

قال: «هل الدار الفخمة بمثابة بيت لك؟».

ردت بقولها : « ولكني أقوم على خدمتها في بحثها .»

ونظر إليها ، كانت مثل سحابة رقيقة مستغرقة في الفكر وبعض الشيء. ولسعته روحه بمشبوب عواطفها وتعاطفها.

قال لها بجدية مفاجئة «لعلك تجدين رعتك أيتها العذراء».

سألته . «ألست أوزوريس ؟» . احمرت وجنتاه . أجاب

«نعم إذا سمحت لي بالشماء! فمازلت أعاني من انعزالي بسبب موتي، ولا سبيل للفكاك من ذلك.»

نظرت إليه برهة في خوف من شمس عينيها الزرقاوين الناعمتين. وبعدئذ خفضت رأسها . وجلس الاثنان في صمت يتمتعان بدفء الشمس الغاربة ووهجها . جلس كلاهما ، الرجل الذي سبق له أن مات والمرأة المنصرفة إلى البحث الخالص .

كانت الشمس تميل إلى أسفل في اتجاه البحر في روعة الشتاء العظيم سقطت أشعة الشمس على أجساد العبيد العارية الوضاءة بأفخاذهم العريضة الوردية ورؤوسهم السوداء الصغيرة وهم يجرون لنشر شباكهم على الشاطئ المغطى بالحصى . كان إله الرعاة الذي يفيض قلبه بكل التسامح يراقبهم . إن إله الرعاة المفعم بالتسامح ينبغي أن يظل إلههم إلى الأبد .

ونهضت المرأة عندما غاصت حافة الشمس في الماء قائلة

«إذا مكثت فسوف أرسل لك زادا وغطاء .»

«وماذا ستقول السيدة أمك؟»

وألقت عليه كاهنة إيزيس نظرة غريبة تشوبها مسحة من لسك

قالت : «هذا ملك لي.»

ابتسم ابتسامة واهنة وهو يستشرف الصعلى. قال :

«هذا حسن».

وراقبها وهي تذهب في حركة غريبة مشغولة البال كالتي من يفكرون في أنفسهم فقط . خفضت رأسها البني اللون وقد التف الكتان الأبيض حول كعبيها اللذين كانا في لون الـ ورأى العبيد العرايا وهم يقفون كي ينظروا إليها بقدر الاندهاش بل بقدر من الشقاوة الشريرة المضمرة . ولكنها مشغولة الفكر خلال الباب في الحائط المقام على الخليج.

وجلس الرجل الذي سبق أن مات أسفل الشجرة المطلة الشط لأن كل شيء كان يحدث على الشط الصغير . وكانت الا لا يزلن يغسلن الكتان عند ينبوع الماء الصغير الذي يجري ركن حائط العقار ، بينما جاء بين الفينة والفينة صوت ارتط أجوف نتيجة خبط الغسيل على الأحجار الملساء في تجويف البركة الصغير المظلم . وانتشرت في الجو رائحة نفايات الزيتون وأحياناً جاء خافتا ضجيج الرحى وهي تطحن الزيتون البستان ، وكذلك صوت العبد مناديا على الأتان كي تحضر

الطاحونة . وبعدئذ دلفت امرأة من مدخل الباب بيضاء الشعر لابسة وشاحا من الصوف المائل إلي البياض ، وتبعها رجل روماني عاري الرأس ويرتدي الشملة الرومانية . وكان هذا الرجل على الأرجح تابعاً لها أو المشرف على شئونها . ووقف الرجل والمرأة في بقعة يغطيها الحصى الأملس أعلى سطح البحر وألقى حوله نظرة سريعة . وأحنى العبيد ذوو البشرة الحمراء والعجز العريض رءوسهم أذلاء خانعين ومستغرقين في التفكير فوق الشباك التي كانت نظيفة عندما قاموا برفعها . والنسوة اللائي يغسلن الكتان يدفعن بكفوفهن بهمة ونشاط في الغسيل . وأحنى الرجل العجوز رأسه - وهو يستغرق في التفكير على حافة الماء - يغسل ما اصطاد من أسماك وحيوانات مائية . وشاهدا أيضاً الرجل الغريب صامتا وبمفرده جالساً أسفل الشجرة على صخور شبه الجزيرة . ولاحظ الرجل الذي سبق له أن مات انهم يتحدثون عنه . ونظر من عالم شبه الجزيرة المقدس الصغير إلى العالم العادي الذي رأى أنه لايزال يناصبه العداء.

كانت الشمس تلمس البحر وامتد عبر الخليج الصغير ظل الأرض المرتفعة ذات السم الموجودة في الناحية المقابلة . وخطت المرأة العجوز بتثاقل على حصى البحر الأملس الذي صار الآن

أزرق وباردا فى الظل ، وحتى ترى فى الظل أيضاً السمـ المفروش فى سلة الرجل العجوز المسطحة وهو يجرمز على حافـ الماء . كان عبدا عجوزا عارى الجسد ذا أرداف واكتاف ممتلئة وقـ تلألأت قبل احتفائها الشمس الغاربة على جسده البرتقالي اللا الذى ترتسم عليه مسحة من الجمال . وظل العبد العجوز ببطـ السمك وهو مشغول البال دون أن ينطلع إلى أعلى ، كما لو كانـ السيدة هي ظلال الغسق الساقطة عليه.

ثم خرجت فتاتان أمتان من البوابة تحملان سلتين مسطحـ على رأسيهما وبرز فى احدى السلتين إناء الخمر وإناء الر المصنوعين من الفخار وهما مائلان ميلا خفيفا . وفوق حصى البحر الكثيف تحت الحائط جاءت الفتاتان كما جاءت كاهنة ايز فى وشاحها الزعفرانى لتسير فى الغسق خلفهما . كانت الشمـ لاتزال تسطع على سطح البحر فى حين سادت الظلال هنا فى هـ المكان . ووقفت الأم التى وخط المشيب شعر رأسها على حافـ البحر لتراقب ابنتها التى كسا اللونان الأصفر والأبيض كل جسمها، والتى ساوت رأسها الأشقر الأربد وهى تتمايل دون تبصر أو تلتفت خلف الفتاتين الأمتين فى اتجاه عنق الصخرة فى شبه الجزيرة . وكانت الابنة تمشى مستغرقة فى الفكر وكأنها فى عالم آخر . ودون أن تتحرك من مكانها أخذت الأم المتقدمة فى

السن تراقب موكبا من ثلاثة أشخاص وقد اصطفوا على قمة الأرض العالية بين الأشجار . ثم اختفى الموكب وقد حجبته الأشجار. ولم يرفع أى من العبيد رأسه لينظر . ثم استمرت المرأة ذات الشعر الأبيض فى مراقبة الأشجار حيث اختفت ابنتها . ونظرت مرة اخرى إلى أسفل الشجرة حيث كان الرجل الذى سبق أن مات لايزال جالساً غير مرئى الآن بسبب اختفاء أشعة الشمس الساقطة عليه. ولم يلمع سوى نصل البحر النائى فقط . وكان الوقت مساء . فليتذرع بالصبر وليأخذ القدر مجراه.

سارت الأم بخطى وئيدة نحو حصى البحر الأملس . لم تكن خطوتها طويلة ومتأرجحة ومستغرقة فى الفكر مثل ابنتها . ولكنها مشت بخطى قصيرة ، عاقدة العزم والتصميم . ثم هبط من فوق الصخور من الناحية المقابلة عبدان عاريان يعدوان وهما يحملان على اكتافهما ربطا ضخمة من الزرع الأخضر الداكن ، لدرجة أن أرجلهما العريضة العالية تلألأت تحت جسديهما مثلما تتلألأ أرجل الحشرات، كما اختفى رأساهما عن الأنظار . جاءا يعدوان عبر الحصى الأملس لا يلتفتان إلى شيء ولا يلويان على شيء ، عندما وجه فجأة المشرف ذو المنظر الرومانى خطابه إليهما . فتوقفا فى مكانيهما مسمرين، ووقفا غير مرئيين تحت رأسيهما المثقلين

بالأحمال، كما لو كانا سيختفيان عن الأنظار تماماً . ولكنهما .. تسمرا في مكانهما . عندئذ امتدت يد مشيرة إلى شبه الجزيرة وبعد ذلك استمر العبدان المحملان بالخضرة في العدو .. ... أطراف المعبد وانضمت المرأة ذات الشعر الأشيب إلى الرجل وببطء اجتاز الاثنان الباب مرة أخرى وسارا في البقعة المغطا بحصى البحر الأملس إلى مكان الدار الفخيمة . ثم نهض العب العجوز ذو الكتفين المثلثتين وقد شحب شكله في الظل حاملا صينية السمك المصطاد من البحر . ونهضت المرأة من البرك بحيوية ولونها كالعسق وهي تجمع الكتان المبلل في كومة فوق السلال المسطحة . وقام العبيد الذين نظفوا الشبكة التي تمد طياتها إلى البياض بجمعها ولمها . ثم اجتمع بالقرب من الس وهم عرايا كل من العبد العجوز الذي يحمل سلة السمك على كت والإماء اللائي يحملن السلال المليئة بالكتان المبلول فوق رءوس والعبدين بشبكتهما المطوية والعبد الذي يحمل المجاديف على ك والغلام الذي يحمل لقمع على ذراعه. وسمع الرجل الذي سبق مات زئير لغوهم الخفيض . وعندما هبت نسمة ريح باردة بدأو يدلفون داخل الباب .

كانت الحياة حياة اليوم العادي التافه وحياة التافهين من الناس

وقال الرجل الذي سبق أن مات لنفسه : «مادمنا لا نحيط الحياة العاديه بحياه اليوم الأعظم ومادمنا لا نضعها في دائرة الحياة الأعظم فإن كل شيء سوف ينتهي بكارثة».

حتى قمم التلال كانت في الظل . السماء وحدها هي التي تلألأت إلى فوق . وكان البحر كالظل الهائل في لون الحليب . ووقف الرجل الذي سبق أن مات وقفة جامدة بعض الشيء . ودخل الخميلة لم يكن هناك أحد في المعبد . مضى إلى جحره في الصخرة . وهنا كان العبيد قد قاموا بنقل العشب الشيطاني القديم المستخدم كفراش للمواشي إلى الخارج ويكنس أرضية المعبد الصخرية . وكانوا يفرشون الرياحين بذوق جميل ثم بعدها الأعشاب الشيطانيه الأكثر خشونة ثم يضعون أعلى ذلك أطراف الأعشاب الشيطانية كفراش . وفوق كل هذا وضعوا جلد ثور أبيض مدبوغا وكانت العذارى قد وضعن أغطية صوفية مطوية على رأس المغارة . واصطف في نظام وترتيب دقيق اناء الخمر وإناء الزيت وقدح من الفخار وسلة تحتوي على الخبز والملح والجبن والتين المجفف والبيض وكان هناك منقد نار صغير فيه فحم خشبي . وفجأة امتلأت المغارة بالأشياء وتحولت إلى مكان يصلح للسكنى.

وقفت كاهنة إيزيس فى الفجوة القريبة من الينبوع الصغير

كان المكان يسمح بدخول عبد واحد فى المرة الواحدة وانتظرت الفتيات الإماء عند مدخل المكان الضيق . وعندما صار الرجل الذى سبق أن مات أمرت الكاهنة الفتيات بالانصراف واستمر العبيد الذكور فى ترتيب الفراش وهم يتلكأون فى إنهاء عملهم بقدر ما يستطيعون . ولكن كاهنة إيزيس أمرتهم بالانصراف أيضاً . وجاء الرجل الذى سبق أن مات ليلقى نظرة على بيته

سألته المرأة «هل يروق لك؟»

أجاب الرجل : «يروقنى كثيرا . ولكن السيدة والدتك، ومن يقوم بلا شك على خدمتها كانوا يراقبون العبيد وهم يحضرون الأشياء والحاجيات .. ألن يعترضوا على ما تفعلين؟»

«إنى أملك جزءا خاصا بى ! أوليس من حقى أن أمنح ما أملك؟ من الذى سيعارضنى ويعارض الآلهة؟» . قالت هذا بقدر من الغضب الناعم المشوب بالضيق، الأمر الذى ينم عن أن أمها سوف تعترض عليها وأن روح اليوم العادى والتافه سوف تحارب ضد روح اليوم الأعظم . وفكر «لماذا تخلت كاهنة ايزيس عن نصيبها فى الحياة اليومية العادية ؟ كان عليها الاحتفاظ بممتلكاتها فى شراسة».

قالت : «ألا تأكل أو تشرب؟ هناك بيض دافىء على الرماد . وسوف أصعد إلى الدار لتناول الطعام . ولكننى سوف أهبط إلى المعبد فى الهزيع الثانى من الليل . آه هل ستجىء أيضاً إلى ايزيس؟» ونظرت إليه وارتسم عليها وهج غريب بسبب اتساع حدقتيها . كان ذلك حلمها . وكان ذلك أعظم من نفسها . لم يكن بمقدوره الآن أن يتحمل أن يعارضها أو يؤذى مشاعرها فى أقل شىء . فقد كانت فى ذروة وهج سرها الأنثوى .

قال «هل انتظر عند المعبد؟»

«آه . انتظر فى الهزيع الثانى من الليل وسوف أحضر إليك».

سمع همهمة الابتهال فى صوتها فاهتزت كل خلجاته.

نظرت إليه المرأة فزعة . وقالت :

«إنها لن تعارضنى !» .

وهكذا أدرك أن الأم سوف تعارض ابنتها لأن الابنة تركت ممتلكاتها فى يدى أمها التى لن تتنازل عن قوتها وسلطانها.

ولكنها انصرفت . ورقد الرجل الذى سبق أن مات مستندا إلى المخدة وأكل البيض من فوق الرماد وغمس خبزه فى الزيت وأكله

لأن جسده كان جافاً . ومزج الخمر بالماء وشربها . ثم رقد ساك
بينما المصباح صنع برعما صغيرا من الضوء .

كان مستغرقا في أحاسيس جديدة وأسيرا لها .. وب
كاهنة ايزيس جميلة في عينيه . ولم يكن جمالها في شكل
بقدر ما كان في وهجها الأنثوي المدهش . وغمرتها الشمو
تلو الشموس في النار الغامضة ... نار المرأة العم
الغامضة .. كان ملمسها مثل ملمس الشمس وكانت أفضا
الأشياء جميعها .

رغبتها الرقيقة فيه مثل سطوع الشمس الذي يجمع بين النو
والسكون .

قال لنفسه وهو يمد أطرافه «انها مثل وهج الشمس الغامر
إنني لم أمد أطرافي قبل ذلك أبداً في سطوع مثل هذه الشم
الماثلة في رغبتها فيّ . إن أعظم الآلهة هي التي منحتني هذا.»

وفي الوقت نفسه لم يبارحه الخوف من العالم الخارجي . قا
لنفسه

«إذا استطاعوا فسوف يجهزون علينا . ولكن هناك قانو
للشمس يوفر لنا الحماية».

وقال لنفسه مرة أخرى «لقد نهضت عاريا وموصوم
ولكني إذا كنت عاريا مافيه الكفاية من اجل هذا الالتحم

فإن موتي لن يضيع سدى . لقد كنت قبل ذلك أرسف في الأغلال».

نهض وخرج ، وكانت لسعة البرد شديدة في الليل الذي تلألأت فيه النجوم والذي تجلي بروعة شتوية عظيمة . وقال مخاطباً الليل:

«هناك مصائر وأقدار للروعة بعد أن كتبت علينا التفاهة والوضاعة والألم .»

وهكذا مضت في صمت إلى المعبد . وانتظرت في الظلام مقابل الحائط الداخلي شخصة بعينيها الى الظلام الرمادي والنجوم وحواف الأشجار . وقال مرة اخرى لنفسه

«هناك للروعة اقدار ومصائر . وهناك قوة اعظم.»

ورأى الضوء الأخير في مصباحها الملفوف بالحرائر يتراقص اتي بانقطاع، ولكن بسرعة خلال الأشجار . كانت بمفردها . وبالقرب منها سقط النور بنعومة على طرف وشاحها وارتعد بخوف وفرح قائلاً لنفسه «إنني أكاد أخاف من هذه اللمسة أكثر من خوفي من الموت . لأنني أشعر وأنا أتعرض لها بقدر أكبر من العري.»

قال لها برقة في الظلام : «انني هنا ياكاهنة ايزيس».

وأيضاً صرخت في خوف . ولكن بانتشاء لأنها استسلمت لحمها. «اه».

وفتحت مزلاج باب المحراب وتبعها ثم أوصدت مزلاج الباب مـ أخرى . كان الهواء بالداخل دافئا ومكتوما ومعطرا . ووقف الرجـ الذى سبق أن مات بالقرب من لباب المعتق وراقب المرأة . حا مى بداية الأمر إلى لإلهة . ووقف تمثل الإلهة فى ضوء خـ يتدفق ويندفع إلى الأمام وهو يبعث على قليل من الخوف مـ حضرة امرأة عظيمة تحث وتحرض.

ولم تنظر الكهنة إليه وخلعت وشاحها البرتقالى ووضعته عـ المضجع الواطىء . كانت فى الضوء الخافت عارية الذراعين فـ ردائها الأبيض المربوط بالحزام . ولكنها كانت لاتزال تختبىء بعيد عنه . ووقف فى الظل وراقبها وهى تنفخ برفق فى منقد النار ونثر البخور عليه لتصعد فى لهواء سحابات واهنة من الأريج الحلو والتفتت إلى التمثال وهى تقترب منه بطريقة من يمارس طقسـ وهى تتمايل برقة إلى الامام وتهتز مثل قارب مربوط فى مرساه نحو الإلهة .

راقب المرأة الغريبة المستغرقة فى أفكارها ، وقال لنفسه .

«يجب علىّ أن أتركها وحدها فى انتشائها وأسرارها الانثوية ثم مالت فى إيقاعها الغريب المهتز إلى لامام قدام الإلهة . ثم

أخذت تهمهم باللغة اليونانية التى لم يتمكن من فهمها . وبينما هى تهمهم أخذ اهتزازها يقل بنعومة مثل قارب فى بحر بدأ السكون يسوده . وأثناء مراقبته رأى روحها فى انفرادها كما رأى اختلافها الأنثوى . قال لنفسه .

«كم هى مختلفة عنى . كم هى مختلفة بشكل غريب . لقد أخذت تصير خالية من الخوف وعارية عنه . كم هى نابضة بالحياة على نحو حساس ورقيق . ولكم تختلف حياتها ! وكم هى فاتنة بما لديها من شجاعة الموت ! كم هى جميلة مثل قلب وردة وكأنها قلب لهب. إنها تعرض نفسها تماماً للاحتراق وكم هو فظيع أن يخيب المرء أملها أو أن يدوس لها على طرف!»

التفتت إليه ووجهها يستمد توهجه من الإلهة.

سألت بسذاجة «أنت أوزوريس . أليس كذلك؟».

قال : «أنا هو إذا شئت».

«هل تسمح لإيزيس باكتشافك؟ وهل تخلع ثيابك؟»

ونظر إلى المرأة فاقدا قدرته على التنفس . وبدأت جراحه ، وخاصة الجرح المميت فى بطنه ، تؤلمه من جديد.

قال : «لقد آلمتنى كثيرا . يجب عليك أن تغفرى لى إذا كنت لا زال هيابا محجما.»

ولكنه خلع عباءته وثيابه واتجه عريانا نحو التمثال وصـ
يتهدج نتيجة الرعب المفاجيء لدى سببه لـه الألم المر
الكاسح ، وتذكرى هذا الألم المروع الكاسح والحزن الذى لا حد
لمرارته.

قال كمن يعتذر عن نفسه لافتا وجهه إليه لحظة «انهم طعنو
حتى الموت».

ورأت فيه شبح الموت أثناء وقوفه أمامها نحيلا وعار
وفجأة أصابها الفزع وخامرها احساس من يتعرض للـ
والسرقة. وشعرت فى انتصار بطيف جناح الموت الرمـ
المروع . قالت للتمثال باللغة لـ... «آه يا إلهتى . سـ
تعمرنى سعادة العيش إذا قمت باعطائى إشارة البد
جديد».

وشعر باليأس مرة أخرى من أجلها، وقد واجهته مطالب الحـ
وهو لايزال يشعر بوطأة موته ثقيلة عليه.

قالت له المرأة فى رقة «دعنى كرست بالزيت. ودعنى أمـ
الندوب لك ! ارنى إياها وسوف أقوم بتكريسها بالزيت!»

ونسى أنه عريان بسبب استعادته للألم القديم . ثم دعكت ـ
فتداعت فى ذهنه الذكريات من جديد . تذكر المسامير ... مـ
الطعنات .. القسوة ... القسوة الظالمة التى لحقت به وهو لم بعـ

عير الحب والحنان .. وانتابه ألم الظلم والقسوة من جديد مثلما شعر بهما ساعة موته . ولكنها دعكت كف يده وهى تهمهم : «الذى تمزق يصبح جسدا جديدا . والذى كان جرحا يمتلىء بحياة جديدة . وهذا الندب هو عين البعث».

لم يكن بوسعه غير الابتسام لها فى استغراقها الساذج فى عملها ككاهنة كان ذلك حلم حياتها . وكان وحده موضوع احلامها . لن تعرف او تفهم أبداً ماهيته . وعلى وجه الخصوص لم تكن لتعرف أبداً الموت الذى انقضى وولى فيه قبل ذلك ولكن ما اهمية ذلك؟ فقد كانت مختلفة ؛ وكانت امرأة كما كانت حياتها وموتها يختلفان عن حياته وموته . فقط كانت حانية عليه وطيبة فى تعاملها معه .

وعندما دعكت قدميه بالزيت وبالشفاء الرفيق للغاية لم يكن باستطاعته أن يمنع نفسه من أن يقول لها

«فى يوم من الأيام غسلت امرأة قدمى بالدموع ومسحتهما بشعرها ، وسكبت على طيبا عالى الثمن »

ورفعت كاهنة ايزيس عينيها من عملها الجاد وتطلعت إليه مقاطعة مرة أخرى «وهل كانت قدماك مصابتين بأى ضرر؟»

« لا . لا . حدث هذا عندما كانت قدماى سليمتين»

«وهل أحسها؟»

أجاب: «لقد مات الحب في قلبها. إنها أرادت فقط أن تودى خدمة. كانت هذه المرأة عاهرة».

سألته: «وهل سمحت لها أن تخدمك؟»

«نعم».

«هل سمحت لها ان تخدمك وقد مات حبها وأصبح جثه هامدة؟»

«نعم».

وفجأة خطرت على باله هذه الفكرة «لقد طلبت منهن جميعا أن يقمن على خدمتى بعد أن تحول حبهن إلى جثة هامدة. وفى النهاية قدمت إليهن فقط جثة حبى الهامدة ... هذا هو جسدى مخذى، وهذه جثتى فكلى»

واحترمه شعور نابض بالخجل وفكر. «إننى فى نهاية الامر أردت منهن أن يحببن بأجسام ميتة. ولو انى طبعت قبلة على مهود! بحب حى فربما كان لا يقبلنى قبلة الموت على الاطلاق. من الجائز انه أحبنى فى الجسد فى حين أردت منه أن يحبنى بدون جسد وبحثة الحب.»

وفجأة تراءت له حقيقة الحب الدافىء الناعم القائم على المس والمفعم بالمباهج.

قال لنفسه «وأخبرتهم طوبى للذين ينصبون وينوحون. يالأسى! إذا كنت معيب حتى هذه المرأة الموجوده هنا وأنا الان فى الموت فينبغى علىّ أن أبقى ميتا. غير أنى أرغب فى الحياة إلى أقصى حد. إن لمستها أصبحت فى نظرى الآن تفوق كل كلماتى. فأنا أريد أن أعيش.»

قالت بصوت ناعم وهى تدفعه تجاه إيزيس. «إذن اذهب إلى هذه الإلهة!» وبينما وقف مشدوها وعريانا كشىء لم يولد بعد سمع صوت المرأة تتمتم للإلهة، تتمتم بمناشدة شاكية. انحنت الآن ناظرة إلى أثر الجرح فى الجسد الطرى فى تجويف جنبه. وبدا الدب عميقا (مثل عين احمرت من كثرة البكاء الذى لا يعرف الانقطاع قط) فى التجويف الناعم فوق العجز. فمن هنا سال دمه وتركته بذرته الجوهرية. كانت المرأة ترتعد برقه وتتمم باللغة اليونانية. وفى يأسه المتكرر الناجم عن موته وفى حيرته التى تفيض بالألم الناجمه عن سعيه إلى إرغام الحياة شعر بجروحه تؤلمه بشدة وبالأمكن العميقة فى جسده تصرخ مرة أخرى وهى تقول «لقد قتلونى وساعدتهم على قتلى. لقد قتلونى وساعدتهم بنفسى على الاجهاز علىّ».

والآن فى صمت وضعت المرأة، وفرائصها ترتعد، الزيت فى يدها. ووضعت كفها على الجرح الموجود فى جنبه الأيمن، فانقبض

وانكمش من الألم . وانشغل باله بالجرح مرة أخرى مثلما حدث له الإف المرات من قبل . ومن الألم المظلم الوحشي والذعر الذي أصاب وعيه ارتفعت صرخه واحدة تقول «كيف يمكنها أن تترك هذا الموت عني؟ إنها لن تعرف أبداً إنها لن تفهم أبداً ولسوف تصورها أن تضارع هذا الموت».

وفي صمت قامت في ايقاع منتظم ناعم بدعك جرحه بالزيت وانصرفت الآن تماماً إلى عملها ككساهنة وهي تستجمع قوتها برقة ونعومة بينما تعالت حشايا الرجل الجوهرية في صمت مذعور . وبينما هي تستجمع قوتها بالتدريج وتضع حرارة حوله ناحية الجرح المقابل إذا بالدفء يبدأ بالتدريج في الحلول محل الرعب البارد . وشعر الرجل : «سوف يدب الدفء في أطرافي مرة أخرى وسوف أصبح سليماً معافياً سوف أكون دافئاً مثل الصباح وسوف أصبح رجلا . هذا لا يحتاج إلى فهم بل يحتاج إلى حدة وسوف يجلب التجديد لي».

وانصت إلى عويل الحزن الخافت الذي لا ينتهي النابع من جروحه كما لو كان اتيا إلى الأبد من تحت آفاق وعيه . ولكن العويل ازداد خفوتا أكثر فأكثر.

وفكر في المرأة التي تجهد نفسها من جرائه . «إنها لا تعرف إنها لا تدرك الموت الذي أصابني . ولكن لديها وعي آخر . إنها تجيء إليّ من طرف الليل المقابل».

وبعد أن قامت بدعك كل الجزء الأسفل من جسمه وهي مشغولة بأداء عملها بجديه بطيئه تليق بها ككاهنة لدرجة أن صوت جراحه بدأ يخفت أكثر فأكثر .

وفجأة وضعت صدرها على الجرح في جنبه الأيسر وأحاطته بذراعيها طاوية بذلك الجراح في جنبه الأيمن وضمته اليها في قوة الدفء النابض بالحياه مثل ثنايا نهر . واختفى النحيب تماماً وحل صمت وظلام في روحه ... صمت مظلم لا ينتهي هو الكمال والاكتمال.

وفي بطء شديد وفي الظلام الكامل الموجود في رجولته الداخليه شعر بحركة ونسمة شيء قادم . إنه الفجر والشمس الجديدة بدأت تسطع فيه شمس جديدة . انتظر بزوغها وهو لاهث يرتعد وقد ملأه أمل مذعور : «الآن لم أعد نفسي فقد تحولت إلى شيء جديد»

وعندما نهض شعر في أنفاس خيبة الأمل الباردة بالحزام الذي طوقته به المرأة الحية وقد انزلق من جسده كما شعر بالدفء والوهج ينزلقان منه ايضاً وقد تركاه عاريا . وجرمزت منهوكة القوى تحت قدمي الإلهة وهي تخفي وجهها .

وانحنى ليضع يده برقة على كتفها الدافىء الوضىء وسر صدمة الرغبة في أرجائه . سرت صدمة تلو الأخرى لدرجة ا تساءل إذا لم تكن هذه الصدمات نوعا آخر من الموت . ولكنه مو مفعم بالجلال .

والآن تركز كل وعيه في المرأة المختبئة المجرمزة . وانحنى بجوارها وهو يربت عليها برقة ودون أي نظر وهو يتمتم بأشيا غير واضحة . وزال عنه الآن تماماً موته ورغبته العارمة في التضحية . عرف فقط اكتمال المرأة المجرمزة هناك ... صخر الحياة البيضاء الناعمة ... فكر . «على هذه الصخرة أقيم حياتي» ... صخرة المرأة الحية . المطوية أغوارها العميقة والتي يمكن اختراقها ! كانت المرأة تخفي وجهها . وكان هو في انحناء قويا وجديدا مثل انبلاج الفجر.

وجرمز نحوها وشعر بوهج رجولته وقوته يصعد في روعة إلى حقويه.

قال «لقد قمت من الأموات.»

بزغت شمس في أعماق حقويه رائعة متوهجة ، ولا سبيل إلى كبحها ، وبعثت نارها في أطرافه فلمع وجهه دون وعي منه .

وفك رباط ردائه المصنوع من الكتان تاركا إياه ينزلق من فوق جسده حتى شاهد الوهج الأبيض في صدرها الذي يشبه الذهب

الأبيض . ولمس ثدييها وشعر بأن حياته قد ذابت . قال : «يا أبتاه لماذا أخفيت هذا عني» .

وتحسسها بحدة اندهاشه وقد مزقته شفافية الرغبة العجيبة المدهشة.

قال : «إن هذا ليتجاوز حدود الصلاة» . شعر بالدفء العميق المطوي .. الدفء النابض بالحياة والذي يمكن اختراقه .. دفء المرأة . . قلب الوردة . وأنا أسكن الوردة الدافئة المتداخلة . وفرحتي تكمن في إيقاعها!»

وتطلعت إليه فجأة .. بدا وجهها مثل الضوء المرفوع الحزين الرقيق كما بدت عيناها مثل زهور كثيرة مبللة . وضمها إلى صدره بعاطفة حنان متأججة تختلط بالرغبة الحارقة . وكان فكره الأخير. «لقد حانت ساعتي وأخذت على غرة».

ثم عرفها وأصبح الاثنان شيئاً واحداً .

وبعد ذلك لمست بأطراف أصابعها في اندهاش معتم آثار الجروح العظيمة في جنبيه وسألته : وجروحك لم تعد تؤلمك؟»

قال : إنها شموس تسطع من وهج شعلتك . إنها كفارتي معك» .

وعندما غادرا المعبد كان الجو باردا قبل انبلاج الفجر ، وحين أغلق الباب نظر مرة أخرى إلى الإلهة وقال : «لعمرى إن ايزيس إلهة حانية تفيض بالرقة والعذوبة . إن ذكور الإلهه العظيمة تنضد دفء القلب ولديها إلهت إناث رقيقات».

ولفت المرأة نفسها في وشاحها وعادت إلى دارها في صمت وهي لا تبصر من حولها شيئاً شاردة اللب مثل زهرة لوتس تفتح اوراقها مرة أخرى وقلبها الذهبي يفيض بالحياة المتجددة . لم شيئاً لأن أوراقها كانت بمثابة غمد لها . فقط قالت «أحشائي ملأى بأوزوريس . إنني ملأى بأوزوريس الذي قام من الأموات!»

ولكن الرجل نظر إلى النجوم التي تفيض بالحياة . قبل انبلاج الفجر وهي تمطر على البحر من تحتها كما نظر إلى خضرة النجم المعروف بالنجم الشعرى ترنو إلى حافة البحر كم هي خضرة لدنة وطريه . ولكم هي ملأى بالثنايا والمنحنيات مثل وردة غير منطو تتفتح أوراقها السمراء كي تبين المكان الذي يلمس فيه الندى سمرتها ! كم هي مكتملة في عظمة تفوق عظمة الآلهة طر ويلروعها وهي تميل من حولي وأنا جزء منها ... من وردة الفضـ العظيمة . أنا مثل الحبة في عطرها كما أن المرأة تشبه الحبة في

جمالها . الآن أصبح زهرة واحدة تتكون من ظلمات كثيرة مورقة ويانعة .

ونام في مغارته بسما طلع الفجر وهو في سكون اللمسه واكتمالها المطلق . وبعد الفجر هبت الريح وأتت بعاصفة يصحب المطر البارد .

وهكذا مكث في المغارة في سلام وابتهاج من عرف اللمس وقد عمرته الفرحة بسماع البحر . وتساقط المطر على الأرض . ورأى زهرة نرجس تنحني مبللة في مثل بياض الذهب الأبيض . وظلت في بللها . إن البحر الداكن والمطر الداكن وزهرة النرجس المبللة والمرأة التي ينتظرها وإيزيس التي لا يراها أحد والشمس غير المرئية .. جميعها توحدت وأصبح بعضها يلمس البعض الآخر

وانتظر عند المعبد مجيء المرأة التي جاءت أثناء هطول المطر وقالت له

«دعني أجلس برهة مع إيزيس ثم تعال إليّ . فهلا أتيت إلي في الهزيع الثاني من الليل؟»

ثم عاد إلى المغارة وجلس في صمت وفي بهجة من عرف اللمس، وانتظر المرأة التي ستحضر إليه بمجيء الليل وتكمل اللمس ، مرة أخرى . وعندما حل الليل جاءت المرأة ... جاءت

جذلة لأنها كانت تتحرق شوقاً سعيا إلى اللمس .. من أجل ان تقترب منه وتلمسه .

ثم جاءت الأيام وجاءت الليالي . وتكرر مجيء الأيام وتحقق اللمس واكتمل . قال

«لن استفسر منها عن أي شيء ولا حتى عن اسمها لأن ذلك يفرقني عنها ».

وقالت هي لنفسها : «إنه أوزوريس وكفى .»

وهبت رائحة ازدهار البرقوق من الأشجار . وكان موسم النرجس قد ولى وانقضى . وأضاء نبات الأنيمونيا الأرض قبل أن يختفي وانتشر في الهواء أريج حقول البقول . لقد تغير كل شيء وغيرت زهرة الكون أوراقها ، واستدارت كي تنظر في الاتجاه الآخر. واكتمل الربيع . وتحقق اللمس واكتمل الرجل من المرأة واكتملت المرأة من الرجل . وأصبح الرحيل وشيك الحدوث.

وذات يوم قابلها تحت الأشجار عندما كانت شمس الصباح ساخنة ، وانتشرت رائحة أشجار الصنوبر العطرة . وانتثرت على الجبال ثمار الكمثرى. اتجهت نحوه ببطء . وعرف أن تغيرا طرأ عليها من تلكئها الحاني ومن ابتعادها الرقيق عنه .

سألها : «هل أنت حبلى؟»

قالت : «لماذا؟»

«أنت مثل شجرة يكسو الازدهار أوراقها الخضراء الممتلئة بالعصارة. ثم إنك أخذت في الابتعاد عني؟»

قالت : «صحيح أني حبلى منك وهذا شيء طيب؟»

قال : «وكيف لا يكون طيباً؟ ولهذا توقف العندليب عن النداء والغناء من قاع الوادي . ولكن أين تلدين الطفل ؟ فأنا لا أملك أي شيء غير الحياة.»

قالت : «سوف تمكث هنا».

«ولكن ماذا ستقول السيدة والدتك؟»

وعبرت الظلال حاجبها . ولم تحر جوابا.

قال : «ماذا سيحدث عندما تعرف؟»

«لقد بدأت تعرف».

«وهل ستلحق بك الأذى»

«كلا لن تؤذيني فأنا أملك كل ما لدي . وسوف يملأ أوزوريس بطني، ولكن هل أنت تراقب عبيدها؟»

نظرت إليه وعكر القلق صفو أمومتها.

قال : «لا تجعلي قلبي يضطرب فقد مت مرة» .

وعرف أن الوقت قد حان، مرة أخرى، كي يشد رحاله . سد
يذهب بمفرده حاملا معه قدره ورغم هذا فلن تكون بمفرده ،
اللمسة سوف تبقى معه حتى بعد أن ترك لمسته عليها . وسو
تذهب شموس غير منظورة معه.

ومع هذا فقد تعين عليه أن يذهب ولكن هاهنا على الحد
استأنفت حياة الغيرة والتملك التافهة قوتها مرة ثانية . بد
أرخت الخصوبة المتاحة من عنفوان الغيرة والتملك . وبا
التملك سوف تسعى الأرملة وعبدها إلى الانتقام منه بسبب لد
الذي أكله ، واللمسة الحية التي أتى بها ، والمرأة التي تمتع بـ
ولكنه قال «لا يمكن لهذا أن يحدث لي مرتين ، إنهم لن يدسـ
الآن اللمسة الكائنة في وسوف أقاوم كل ما تتفتق عنه أذهـ
بكل ما يتفتق عنه ذهني».

وهكذا راقبهم وعرف مؤامراتهم وابتعد عن المعـ
الصغيرة ووجد ملجأ آخر كان عبارة عن جحر صغير من ا
بجوار البحر. كان ملجؤه جافاً وخافيا عن الأنظار
الصخور .

قال للمرأة «يجب الآن أن أذهب في الحال . فسوف تأ
المتاعب من العبيد . ولكني رجل وأبواب العالم مفتوحة
أمامي . والذي يربطنا شيء طيب عميق وراسخ عليك السلا

عندما يرتفع صوت العندليب مناديا من قاع الوادي سوف أتى
رة أخرى في مثل يقين الربيع»

قالت «اه لا تذهب، ابق معي فوق نصف الجزيرة وسوف
شيد منزلا لك ولي تحت اشجار الصنوبر بجوار المعبد حيث
مكننا أن نعيش منفصلين».

ومع هذا فإنها أدركت أنه سوف ينصرف ، بل انها أرادت أن
حيطها ببرودة هوائها الخاص بها كما أرادت أن تتخفف من
القلق.

قال «إذا مكثت فسوف يخونونني لدى الرومان ويقدمونني إلى
لمحاكمة ولن أقبل أبدا أن يخونني أحد مرة ثانية
لهذا عيشي في سلام مع طفلك النامي حين أنصرف . وسوف
ى مرة أخرى فكل ما بيننا طيب سواء كنا قريبين أو
مبعدين . إن الشموس تأتي في مواسمها . وسوف أعود مرة
أخرى».

قالت «انتظر بعض الوقت قبل أن تذهب لقد كلفت عددا
مراقبة عنق شبه الجزيرة . فلا تذهب قبل أن تتأكد من عدم
ترصد للأذى».

ولكنه سمع ضربات المجاديف الناعمة بينما كان راقدا في
سفينته الصغيرة في ليلة هادئة ساكنة وصوت ارتطام القارب على

الصخرة . وزحف إلى الخارج لينصت فسمع المشرف الروماني يقول

«جدف برقة إلى وكر الماعز وسوف يقوم ليسيوس بإلقاء الشبكة على المجرم أثناء نومه وسوف يحضره إلى القاضي . وسوف نخفي هذا الأمر عن كاهنة إيزيس».

وهبت نفخة ريح في أجساد العبيد العارية والمدهونة بالزيت وهم يزحفون إلى أعلى تجاه الرجل الذي سبق أن مات . ثم شم العطر الخفيف المنبعث من الرجل الروماني وزحف ليقترب أكثر البحر وجلس الرجل الموجود في القارب وهو لا يتحرك ساكنا ممسك بالمجاديف لأن السكون كان يسود البحر تماما . ونعرف الرجل الذي سبق أن مات عليه . وقال بصوت واضح من خلال الشق العميق الموجود في الصخرة

«ألست ذلك العبد الذي واقع الفتاة العذراء تحت أبصار إيزيس؟ ألست أنت هذا الشاب؟ تكلم!»

وانتصب الشاب واقفا مفزوعاً في القارب . وتسببت حركته في ارتطام القارب بالصخرة . وقفز العبد خارج القارب في خوف عظيم وخف هاربا بين الصخور . وبسرعة أمسك الرجل الذي سبق أن مات بالقارب ودخل فيه ودفعه كي يتحرك على سطح الماء وكانت المجاديف لا تزال دافئة بدفء أيادي العبيد غير السار

ولكن الرجل دفع القارب ببطء ليبتعد به عن الشاطيء ويصل إلى مجرى التيار حتى يحمله في صمت . وقبع الساحل المرتفع في ظلام دامس قبالة الليل الذي تضيئه النجوم. ولم تأت من شبه الجزيرة أية ومضة ضوء . وامتنعت الكاهنة عن المجيء في الليل . وجدف الرجل الذي سبق أن مات ببطء مع التيار وهو يقول لنفسه ضاحكا «لقد غرست بذرة حياتي وبعثي ووضعت لمستي إلى الأبد في أحلى امرأة في هذا الزمان . وإني أحمل عطرها في جسدي مثل أريج الورود . إنها أثيرة إلى قلبي وتحتل المركز في كياني. ولكن الحية الذهبية النائمة تلتف حول نفسها مرة أخرى لتنام عند جذع شجرتي» .

«لذا فليحملني القارب . وسوف يكون الغد يوما آخر».

لورانس
سيرة حياته

د هـ لورانس
سيرة حياته

كان الأديب الانجليزى العبقرى د هـ لورانس متعدد المواهب يو
القصة والرواية والقصيدة الشعرية فضلا عن أنه خلف وراءه مجمو
كبيرة من الرسوم واللوحات ، وليس أدل على غزارة انتاجه من هـ
القائمة بأعماله الأدبية مرتبة ترتيبا زمنيا

«الطاووس الابيض» (١٩١١) ، «المعتدى» (١٩١٣) «قصائد حـ
وأشياء أخرى» (١٩١٣) ، «أبناء وعشاق» (١٩١٣) «ترمل مسـ
هولرويد» (١٩١٤) ، «الضابط البروسى» (١٩١٤) ، «قوس قـز
(١٩١٥) ، «الشفق فى ايطاليا» (١٩١٦) ، «أمورس» (١٩١٦) ، «
لقد انتهينا» (١٩١٧) ، «قصائد جديدة» (١٩١٨) ، «خليج» (١٩١٩
«المس واذهب» (١٩٢٠) ، «نساء عاشقات» (١٩٢٠) ، «الفتاة الضائعة
(١٩٢٠) ، «حركات فى التاريخ الأوربى» (١٩٢١) ، «التحليل النفـ
واللاوعى» (١٩٢١) ، «السلحفاة» (١٩٢١) ، «البحر وساردينيـ
(١٩٢١) ، «عصا أريون» (١٩٢٢) ، «فانتازيا اللاشعور» (١٩٢٢
انجلترا يلدى وقصص أخرى» (١٩٢٢) ، «طائر الست والثعلب ودمـ
الكابتن» (١٩٢٣) ، «دراسات فى الادب الأمريكى الكلاسيكى» (١٩٢٣
«الكانجارو» (١٩٢٣) ، «طيور ووحوش وازهار» (١٩٢٣) ، «الصبى

الشجيرة» (١٩٢٤) «سانت مور والأميرة» (١٩٢٥) ، «أفكار عن موت الدندل ومقالات أخرى» (١٩٢٥) ، «الافعى ذات الريش» (١٩٢٦) ، دافيد» (١٩٢٦) ، «الشمس» (١٩٢٦) ، «أشباح فرحة» (١٩٢٦) «الصباح فى المكسيك» (١٩٢٧) ، «سقف رودون» ، «قصائد د هـ لورانس المجموعة» (١٩٢٨) ، «النساء اللاتى ابتعدن وقصص أخرى» (١٩٢٨) ، «عشيق الليدى تشاترلى» ، «لوحات د هـ لورانس» (١٩٢٩) ، «زهرة البنفسج» (١٩٢٩) ، «مناوشتى مع جولى روجر» (١٩٢٩) ، «الأدب المكشوف والبذاءة» (١٩٢٩) ، «الديك الهارب أو الرجل الذى مات» (١٩٢٩) ، «نبات النيتل» (١٩٣٠) ، «العذراء والعجرى» (١٩٣٠) ، «الحب فى أكوام القش» (١٩٣٠) ، «انتصار الآلة» (١٩٣٠) ، «بشأن الليدي تشاترلى» (١٩٣٠) ، «الرؤيا» (١٩٣١) ، «اماكن أوترسكانية» (١٩٣٢) ، «قصائد أخيرة» (١٩٣٢) ، «سفينة الموت وقصائد أخرى» (١٩٣٣) ، «السيدة المحبوبة» (١٩٣٣) ، «مسرحيات د هـ لورانس» (١٩٣٣) ، «ليلة جمعة عامل فى منجم فحم» ، «العاشق الحديث» (١٩٣٤) ، «حكايات د هـ لورانس» (١٩٣٤) ، «العنقاء : أوراق د هـ لورانس بعد وفاته» (١٩٣٦) ، «المعنى الرمزى : دراسات لم يسبق جمعها فى الادب الكلاسيكى الجديد» (١٩٦٢) ، «خطابات د هـ لورانس : المجموعة» (١٩٦٢)

* * *

ولد د هـ لورانس – واسمه بالكامل دافيد هربرت ريتشارد لورانس – من أبوين تعيسين هما آرثر جون لورانس وزوجته ليديا لورانس فى يوم ١١ سبتمبر عام ١٨٨٥ فى قرية إيستوود بمنطقة نوتنجهام شير المشهورة

يمناجم الفحم ، وهى قرية وطأها التضيع بأقدامه . شأنها في ذلك شـ الكثير من قرى المنطقة - فأحال جمالها مسخا ونضارتها قبحا ولو. نقاءها الدخان الكثيف الأسود المتصاعد من المناجم والمصانع المجاور ولكن الطبيعة في ايستوود على أية حال لم تكن حتى أيام لورانس قـ فقدت كل بهائها ، اذ أنها كانت حينذاك مزيجا غريبا من القبح والجمـ والمسخ والنضارة ، وذلك لان التضيع البغيض لم يكن بعد قد زحف إلـ كل مكان ليدنس كل ماهو نقي ويشوه كل ماهو جميل ، ويعبر لورانس عن مقتـه لوجـه التصـنيع الشـائه الذى بدأ يطل على ربـوع الريف الانجليزى في احدى مقالاته التى تحمل عنوان «نوتنجهام ومناجم الريف» فيقول

«إن الجريمة البشعة التى ارتكبتها الطبقات الموسرة ورجال الصناعـ فى العصر الفيكتورى المزدهر هي أنها جعلت العمال يرسفون فى أغلا القبح القبح القبح جعلتهم يرسفون في حياة دنيئة ، وبيئة قبيحـ لاشكل لها ، وفي مثل عليا قبيحة ، ودين قبيح ، وأمل قبيح ، وحـ قبيح ، وثياب قبيحة ، وأثاث قبيح ، ومنازل قبيحة ، وعلاقات قبيحـ بين العمال وأصحاب الأعمال . إن روح الإنسان تحتاج إلى الجمـ الفعلى أكثر من احتياجها للخبز الذى تقتات به» .

كان لورانس أصغر ابن فى عائلة تتكون فيما عداه من ابنين أكبرهـ جورج ، يليه وليم ارنست ؛ ومن ابنتين كبراهما تدعى اميلي او وصغراهما تسمى ليتيس ايدا . وكان هزيلا ضامرا عند مولده يعكس احويه الذكرين اللذين توفرت لهما كل أسباب الصحة والعافية . ويقو وليم هوبكن - أحد اصدقاء العائلة - إن لورانس بدا في شهره الأول مـ

أرنب مسلوخ ، وانه عندما التقى ذات يوم بمسز لورانس فى الطريق العام فى قرية ايستوود . وهى تدفع بيديها عربة الاطفال التى تحمل ابنها الهزيل - هزت الأم رأسها في اسى وقالت انها لاتتوقع لطفلها أن يظل على قيد الحياة أكثر من ثلاثة اشهر

وعاش والدا لورانس الشقيان جل حياتهما فى عراك متصل بلغ بهما مبلغ القطيعة والنفور . كان أبوه . وهو عامل فى منجم للفحم فى ايستوود - قبل زواجه جسورا مرحا يهوى الرقص ويجيده ، ويتحدث عن عمله المضنى الشاق فى ظلام المنجم تحت باطن الارض بأسلوب يضفى على هذا العمل نوعا من الرومانسية المحببة إلى النفس . ورأت مسز ليديا فيه طرازا فريدا من الرجال لم يسبق أن التقته قبل ذلك فأغراها ذلك بزواج ظلت تندم عليه طيلة حياتها . كانت هذه المرأة - وهى ابنة مهندس متدين ومتزمت أحنى عليه الدهر - تتمتع بقدر من الثقافة والمعرفة واشتغلت بالتدريس قبل زواجها بعض الوقت ، ويقال إنها كانت تقرض شيئا من الشعر . وعلى الرغم من غلظة البيئة التى عاشت فيها بين عمال المناجم وزوجاتهم فقد ظلت تتحدث بلغة المتعلمين الراقية التى تغاير اللغة الخشنة التى يستخدمها زوجها الجلف وجيرانها الأجلاف . ومن ثم يتضح أنها كانت بالرغم من فقرها تنتمى بالاصل والطبع معا إلى الطبقة البورجوازية ، فى حين ينتمى زوجها بالخلق والعمل إلى طبقة البروليتاريا ، ويذهب بعض النقاد إلى ان لورانس يصور فى روايته «ابناء وعشاق» (١٩١٣) الصراع المحتدم بين أبويه على أنه بالدرجة الأولى صراع طبقي بين البورجوازية والبروليتاريا

وبالرغم من أنه يتخذ في هذه الرواية ، من هذا الصراع ، موقفـ محايدا فإن حيدته احتفت فيما بعد كما يتضح لنا من لومه اللاحـ لامه

كان لورانس نهبا موزعا بين العطف على أبيه والولاء لأمه ، ويمكـ أن نستبين التأرجح في موقفه من أبويه إذا قارنا بين ما كتبه فـ قصيدته «الرنجة الحمراء» وبين بعض الاعترافات التى أسر بها إلى بعـ من اصدقائه ففى هذه القصيدة يعبر عن ازدرائه لابيه واحتقاره له كـ يصر في الوقت نفسه على تبجيله لوالدته يقول لورانس في «الرنجـ الحمراء» :

«لقد كان أبى عاملا ولكن روح أمى كانت تسمو على روحه

وإذا استعرضنا موقفه من أبيه كما صوره في سيرة حياته الذاتية «ابـ وعشاق» فإنه يتضح لنا على الفور عطفه على أمه ومقته لأبيه ، وتر لنا أخته ايدا أنه استمد مادة «أبناء وعشاق» الروائية من واقع حـ أسرته وان قصة زواج أمها من أبيها عامل المنجم – واسمه في الرو والترموريل – ليست سوى تسجيل صادق للواقع ، كما أن الإحباط الـ منيت به مسز موريل في هذه الرواية يطابق الإحباط الذى منيت به مـ لورانس في الحياة فقد أحبت مسز لورانس في صباها شابا متد ومتعلما كانت تتطلع إلى الزواج منه ، ولكنه انصرف عنها ليتزوج امـ تكبره سنا طمعا في مالها ، ولم يمض وقت طويل على زواج مسز ليـ لورانس من عامل المنجم آرثر چون لورانس حتى بدا الخلاف الشـ يدب بينهما وأصبحت حياتها معه جحيما لا يطاق ، فقد كانت الزوجة كـ يصفها لورانس في روايته مثل أبيها في شدة تدينها وتزمتها البيوريتـ

تمقت معاقرة الخمور ، طموحة تقبل عن كره ماتعيش فيه من املاق ، ونشب الخلاف بين الزوجين عندما اكتشفت الزوجة أن رجلها الذى وعدها بالكف عن الشراب يخفى جانبا من أجره الضئيل لينفقه في الحانات مع أصدقائه من العمال ، ثم يعود إلى البيت ثملا مخمورا يغلظ في معاملتها ويفحش لها في القول ويجنح إلى استخدام العنف معها ، وكانت وسيلة الأم في الانتقام من زوجها أن تسعى ما وسعها السعى إلى تنفير الأبناء من أبيهم وبث روح الكراهية فيهم حتى غدوا يمقتونه مقتا لامزيد عليه ، وكان مجرد وجوده في البيت يلقى عليهم ظلالا كثيفة من الخوف والفزع والحزن والاكتئاب ، الامر الذى أشعر الاب بالغربة المريرة في عقر داره، وقد اعترفت لنا ايدا فيما بعد أن الأسرة انتهجت سياسة خاطئة عندما ابتعدت عن الأب ولم تظهر نحوه ادنى قدر من الحنو والعطف والاشفاق وتروى لنا اتسساه بروستر – وهى صديقة لـ د هـ لورانس كانت تعيش مع زوجها في جزيرة سيلان – ان لورانس اعترف في حضرتها وحضرة زوجها عندما قابلهما في هذه الجزيرة عام ١٩٢٢ (أى بعد انقضاء عشرة أعوام على كتابة «أبناء وعشاق» ، أنه يشعر أنه تجنى على والده في هذه الرواية ، الامر الذى جعله يحس أنه يجدر به أن يعيد كتابتها من جديد ، فقد اتضح له بعد فوات الاوان ان العيب لم يكن في ابيه الذى كان يحيا حياته بطريقة منطلقة تلقائية ويستغرق فيها بنهم ، بل في امه المترمتة التى كانت تعتقد انها تتحلى من الفضائل بما لا يتحلى به الاخرون فهى التى ضحت بهذا الرجل على مذبح تزمتها وهى المسئولة عن خنق تلقائيته وتلقائية الأبناء معا

وفي صباه أحب لورانس فتاة تصغره بعام واحد تدعى «جيسي تشامبرز» التقى بها في صيف عام ١٩٠١ في مزرعة تملكها عائلتها عـ بعد نحو ميلين شمال ايستوود وتعرف لورانس بهذه الفتاة قبل التحـ بالعمل ككاتب في احد مصانع نوتنجهام بزمن قصير . ودامت علاقته ـ ما يقرب من اثنى عشرة عاما قدر لها أن تكون أعواما عنيفة ، ويصو لورانس علاقته المصطربة بهذه الفتاة في روايته «ابناء وعشاق» حـ يسمى نفسه بول موريل ويسمى الفتاة ميريام ليفرز بدلا من اسمهـ الحقيقي جيسي تشامبرز . وحدث أول لقاء بين جيسي تشامبرز ولورانـ في اجتماع من اجتماعات مدارس الأحد ولولا التقاء والدتي الفتـ والفتى لما قيض لهما أن يؤلف الحب بين قلبيهما . ويرجع السبب ـ توطد العلاقة بين الوالدتين أن أم لورانس أنست إلى أم جيسّي الـ كانت حديثة العهد بالمنطقة نسبيا فباتت تبثها لواعج نفسها وما تراكـ فيها من مرارة على مدى عشرين عاما عاشتها في ايستوود بين عمـ المناجم وزوجاتهم ، وبالرغم من أن والدة لورانس وعدت والدة جيسـ بأن تزورها في مزرعتها فقد قضت ثلاثة أعوام قبل أن تفي بالوعد الـ قطعته على نفسها . وعندما قررت مسز لورانس أخيرا أن تزور صديقـ اصطحبت ابنها الأصغر معها ، ويسجل لورانس تفاصيل هذه الرحلة يوم من أيام الصيف في روايته «أبناء وعشاق» . ويبدو أن و ـ لورانس انقطعت عن زيارة صديقتها بعد المرة الأولى ولكن زيارات ـ الأصغر لعائلة تشامبرز استمرت بشكل منتظم ، وكثيرا ما كان يحمـ ومعه احدى المجلات ليطلع أفراد العائلة عليها ورغم أن علاقة الـ لورانس بوالد جيسي كانت ودية للغاية فإن إخوتها الذكور كانوا يتحاشو

في بادىء الأمر خوفا من أن يسلك معهم مسلكا متعجرفا أو متعاليا ، وتذكر جيسي ان لورانس في ذلك الوقت كان يحصر فجأة ويدلف في هدوء الى المطبخ الدافىء الذى تنبعث منه رائحة (الخبيز) الزكية . ولكن زيارات لورانس لعائلة تشامبرز بدأت تقل بعد التحاقه بالعمل ككاتب في نوتنجهام ، وفي صيف عام ١٩٠٦ رافقت جيسي د . هـ . لورانس ووالدته لقضاء إجازة على شاطىء لينكولن شير ، وفي خلال هذه الإجازة عاملها لورانس بقسوة . وعندما كتب د . هـ . لورانس روايته «أبناء وعشاق» أمدته جيسي بمذكرات سجلت فيها علاقته بها وقسوته عليها . وقد أفاد لورانس من مذكرات جيسي في هذا الصدد وضمنها ذلك الفصل من الرواية الذى يحمل عنوان «هزيمة ميريام» وفيه يطلب اليها بول أن تنفصل عنه لانهما لايحبان بعضهما البعض حبا خالصا وتدل الحادثة التالية على موقف والدة لورانس الاخلاقى المتشدد في شئون الجنس ، فقد كانت لا تكف عن لفت نظر أفراد عائلتها إلى المصائب التى يمكن أن تلحق بالمرء من جراء خمس دقائق من اللذة ينسى فيها المرء نفسه

كانت لظروف نشأة د . هـ . لورانس في قرية ايستوود اثرها البالغ في أدبه فقد تبوأ الريف في قلبه مكانا بـارزا وانعكس كلفه به على اتـجاه الفني ، ويتضح لنا من دراسة هذا الانتاج أنه لايعنى بتصوير المدينة الا قليلا ، ولم يكن لورانس نفسه يطيق أن يعيش في المدن طويلا

صحيح أن احداثه الروائية قد تقع في ضواحي المدن ولكن الطابع الريفي يغلب عليها فالبيئة الريفية تستأثر باهتمامه اكثر مما تستأثر الضواحي به ، ولعل الصواب لايجانبنا إذا قلنا إن المستعمرة أو المدينة

الفاضلة التى ظل لورانس طيلة حياته يحلم بإنشائها تحت اسم «رنانيم» لم تكن سوى قرية تخيلها فى صورة مثالية

ومهما كان الأمر فإن حياة د. هـ. لورانس لم تكن بؤسا كلها ، فقد كان يفرح بزيارة السوق التى تقام مرتين كل عام لمدة ثلاثة أيام من شهرى سبتمبر ونوفمبر، كانت سوق سبتمبر تقام على مساحة من الأرض الفضاء أمام الحانة التى كان الأب يتردد عليها ، وهى نفس الحانة التى صورها لورانس فى روايته «أبناء وعشاق» ونحن نقرأ فى الفصول الأولى من هذه الرواية أن الأطفال يغمرهم الفرح والابتهاج عندما يزورون هذه السوق ، فى حين يحتسى الأب الخمر فى الحانة المجاورة ثم يعود إلى بيته حيث تستقبله زوجته بالملامة والتقريع وتبدأ حلقة من سلسلة المنازعات الزوجية العنيفة التى لاتنتهى ، أما السوق الأخرى التى كانت تقام فى شهر نوفمبر من كل عام فيرجع أصلها إلى تقليد قديم اندثر بمرور الزمن . ولكن فكرة اقامة السوق نفسها استمرت بالرغم من اندثار الاصل ، فقد كان الفلاحون من القرى المجاورة يحضرون إليها بحثا عن العمل ، وكانت العادة المتبعة حينذاك ان ياتى اصحاب الأعمال الى السوق لاختيار من يشاءون من العمال وعقد اتفاق معهم ، وكان صاحب العمل يعطى الفلاح الذى يريد استئجاره بنسا واحدا بمثابة عربون او عقد اتفاق بينهما ، فيصبح بذلك لزاما على هذا الفلاح أن يعمل فى خدمته لمدة عام بأكمله . وفى طفولته أيضا كانت الفرحة تستبد بـ د. هـ. لورانس حين يحضر حفلات التمثيل التى تقيمها تحت خيمة كبيرة بعض فرق التمثيل المحلية المتجولة عند زيارتها لقرية ايستوود ومن بين التمثيليات التى شاهدها لورانس فى طفولته وتركت فى نفسه أعمق

الأثر- رغم فجاجة تمثيلها وما تردى فيه الممثلون من اخطاء - مسرحية شكسبير المعروفة «هاملت» ، وتأثر لورانس بالذات بذلك المشهد الذى يظهر فيه شبح والد هاملت وهو يرتدى درعا ويخاطب ابنه قائلا : «هاملت اننى شبح أبيك» . وكان لورانس كذلك يحضر حفلات الاستماع إلى الأدب المقروء التى يرتادها المستمع نظير بنس يدفعه وكانت أهم فقرة فى هذه الحفلات الأدبية قراءة بعض اعمال ديكنز الروائية من فوق منصة ، تماما كما كان ديكنز نفسه يفعل اثناء تجواله فى البلاد ، ولكن مما يؤسف له أن هذا التقليد الادبى الجميل اندثر فى يومنا الراهن . والى جانب ذلك أنشأ روبرت ريد - الذى عين قسيسا فى ايستوود - جمعية أدبية كان لورانس يتردد عليها ، وتوثقت عرى الصداقة بين هذا القسيس ووالدة لورانس ، فقد كانت تأنس إليه بقدر ما كان يانس إليها نظرا لما لاحظه فيها من عناية بالثقافة واهتمام بشئون الفكر والأدب . ويجد من يقرا رواية «أبناء وعشاق» تسجيلا لزيارات هذا القسيس المتكررة لوالدة لورانس التى كانت تستقبله بكل حفاوة وتقدير ، كما تسجل هذه الرواية كيف كان زوجها عامل المنجم يتعمد مضايقة هذا القسيس وإحراجه ، وذلك بالإلحاح عليه أن يتحسس على ملابسه آثار العرق الذى كان يتصبب منه أثناء عمله المضنى تحت باطن الارض.

كان لورانس فى طفولته يتردد كثيرا على الكنيسة ، الأمر الذى حدا به فيما بعد الى أن يكتب أنه تشرب الإنجيل منذ نعومة أظفاره ، ويتضح لنا ان سفر الرؤيا ، الذى يتنبا فيه يوحنا بنهاية العالم ، كان دائما ماثلا امامه بسبب كثرة ترديده على مسامعه ، يقول لورانس فى هذا الصدد :

، كنت أعرف منذ طفولتي المبكرة لغة سفر الرؤيا وصوره ، ولا يرجع هذا إلى أنى كنت أقصى وقتى فى قراءته ولكنه يرجع إلى انهم كـ يرسلوننى إلى مدارس الاحد والكنيسة وجمعية خلاص النفوس وجمعي المساعي المسيحية ، كانوا دائما يتلون على سمعى آيات الإنجيل سو كنت راغبا فى ذلك ام كارها فيه ،

ولحسن حظ د. هـ. لورانس فى طفولته ان المشرف على مدارس الأحد فى ذلك الوقت – وهو رجل ذو لحية بيضاء اسمه مستر ريمنجتون– كان يلقن الأطفال الترانيم الدينية ذات الطابع الحماسى مثر ترنيمة ،اطلقوا صرخة المعركة، و ،ذودوا عن القلعة لأنى آت إليكم ، ،هبوا للدفاع عن يسوع المسيح، ، فقد كانت هذه الترانيم الدينية تنطوى عليه من روح قتالية تروق له أكثر مما تروق له الترانيم الوديع او المستسلمة . ولاشك أن هذا يعطينا صورة واضحة عن تأصل روح النضال أو القتال فيه منذ نعومة أظفاره ، ويتذكر لورانس موقفه من الدين فى تلك الفترة المبكرة من حياته ، فيقول :

،إن فظاعة العواطف السنتمنتالية الرخيصة التى اعترت الدين كانه مرض البرص لم تكن قد اجتاحت قريتنا المنتجة للفحم ، وانى مازا أذكر اننى عندما كنت فى الصف الثانى فى مدارس الأحد أن المدرس حاولت ان تجعلنا نشعر بالاسى لصلب المسيح ، وظلت هذه المرأة تر ،أولستم حزانى على يسوع المسيح ؟ أولستم حزانى عليه ؟ فاجهش معظم الأطفال بالبكاء ، ولكن الشيء الذى يحيا ماثلا فى ذاكر هو أننى قلت لنفسى حينذاك : ،إننى فى الحقيقة لا أهتم بهذا الام البتة، ولم يزايلنى بعد ذلك شعور بانى لا اهتم مطلقا بقصة صلـ

المسيح بأى شكل من الاشكال ، ولكن أعجوبة الصلب غارت فى أعماقى،

وكان هذا الإحساس بأعجوبة الصلب سببا فى شغفه بالترانيم الدينية، ويعترف لنا لورانس ان أعظم ما انتجته قرائح أبرز الشعراء مثل قصيدة وردزورث ،انشودة الخلود، ، وأناشيد كيتس ، وغنائيات جوته وفيرلين ، وبعض أجزاء من شكسبير لم تستطع أن تغور فى أعماقه مثلما استطاعت الترانيم الدينية العادية التى تلقنها فى طفولته أن تغور فى نفسه ، ويبدو اثر هذه الترانيم المنتشرة بين عمال المناجم واضحا فى قصته ،الافعى ذات الريش، (١٩٢٦)

وفى طفولته كانت والدة لورانس تحرم دخول الحيوانات الأليفة فى البيت، فقد كانت تعتقد ان تربية هذه الحيوانات تتنافى مع النظافة والذوق السليم، وكان هذا التحريم سببا فى مضايقة الابناء وفى مقدمتهم لورانس، وألح الاطفال على أمهم ان تسمح لهم باقتناء بعض هذه الحيوانات يؤيدهم ابوهم فى ذلك، الامر الذى اضطرها فى نهاية الامر الى الرضوخ لرغباتهم ويصور لورانس فى قصتين له بعنوان ،ادولف، و ،ركس، اولهما ارنب وثانيهما كلب اراد الاطفال تربيتهما . ويعكس ادب لورانس شغفه بالحيوانات كما تدلنا على ذلك تلك الطائفة الكبيرة من القصائد والقصص التى كتبها عن الحيتان والفيلة والخفافيش وغيرها من الحيوانات . ومما ينم عن مقدار حسه المرهف وشفقته بالحيوان ما ترويه أخته ،ايدا، من انه اصيب بالغثيان فى المدرسة عندما اضطر الى تشريح ضفدعة.

كان جورج ، اكبر أبناء عائلة لورانس ، اكثرهم وسامة فى حي
كان وليم - ارنست - قرة عين العائلة وموضع فخرها - نابها فى
دراسته بمدرسة بوثال الداخلية ، ولكن ظروف عائلته القاسيه
اضطرته الى البحث عن عمل وهو غلام لا يتجاوز عمره الثا
عشرة فاشتغل كاتبا فى مكتب تابع لإحدى شركات المناجم، ثم التح
بخدمة جمعية تعاونية محلية، ولكن وليم استطاع بفضل مثابر
وجلده ان يواصل دراسته فى المساء ويتعلم الاختزال والكتابة عـ
الآلة الكاتبة الى جانب اللغتين الفرنسية والالمانية . وعندما بلـ
الحادية والعشرين شد رحاله الى لندن حيث التحق بخدمة احـ
الشركات.

واصبح على د. هـ . لورانس الصغير ان يتنافس مع اخيه و
حتى يصل إلى ما وصل اليه من تعليم، والتحق بنفس المدرسة الـ
سبق ان التحق بها اخوه وليم، وأمضى بها خمسة اعوام لم يكـ
سعيدا فى معظمها .

ولولا حرصه على إرضاء أمه التى كانت تشير بفخر واعتزاز الـ
منجزات اخيه الدراسية وتحثه على الاقتداء بها لأعرض لورانس -
الدرس والتحصيل وفى هذا الصدد يذكر لنا جورج فى عام ١٩٥٠
دراسة أخيه لورانس على كره منه ، كانت تسبب له صداعا وانه
حرصه على مشاعر أمه وخوفه من إغضابها لما تردد فى ان ينبذ
الدراسة نبذا تاما. وفى مقال كتبه لورانس فى عام ١٩٢٩ بعنو
«عبيد المدنية» نراه يحسد أباه الجاهل لأنه استطاع ان يفلت من قبـ
المدارس والمعلمين، ويصف لورانس جيل والده بأنه جيل ظل بحتد

بوحشيته ، فلم تستطع المعلمة ان تعلمه كتابة اسمه إلا بشق الانفس، وكان يهرب من جو المدرسة الخانق لينطلق فى احضان الطبيعة، ويستمتع بجمال الريف . ويأسى لورانس لأن جيله قد غدا اسير السلطة التعليمية، ولم تكن هذه الكراهية المشبوبة للمدارس والقائمين بأمر التعليم قاصرة عليه وحده فقد شاركه فيها كل زملائه من ابناء عمال المناجم الذين ينظرون الى المدرسة نظرتهم الى سجن يقوم المدرسون بحراسته . وكان اول يوم ذهب فيه الى المدرسة يوما تعسا فقد انخرط عندئذ فى البكاء ، وسرعان ما اصبح تشبثه وعناده سببا فى اصطدامه بإدارتها . كان اسم دافيد كريها على نفسه يود ان يتبرأ منه، وكلما ناداه مدرسه و. و. وايتهد بهذا الاسم امتنع عن الرد عليه، الامر الذى احنق المدرس وأثار ثائرته وجعله يعنفه قائلا: «إن دافيد اسم رجل عظيم صالح، مشيرا بذلك الى النبى داود فى الكتاب المقدس، وكان وايتهد يعامل تلاميذه ابناء عمال المناجم بفظاظه وغلظة تتناسبان مع فظاظتهم وغلظتهم ينهرهم تارة ويضربهم تارة حتى يستطيع فى نهاية الأمر ترويضهم ولم يكن هناك مفر من ان يقبل تلاميذه اسلوبه الخشن فى التربية والتعليم ، فقد كان يحظى بتأييد أولياء الامور وثقتهم ، وكان لهذا المعلم الغليظ الفظ على اية حال فضل فى حصول لورانس فيما بعد على منحة دراسية مكنته من الالتحاق بمدرسة نوتنجهام العالية ليواصل بعدها دراسته بجامعة - كلية نوتنجهام . وفى يفاعته كان لورانس بين زملائه الطلبة الاجلاف يعانى من ضعف بنيته ومن عجزه - بعكس اخويه جورج ووليم - عن الدفاع عن نفسه ضد اعتدائهم عليه وتحرشهم

به. وبسبب ضعفه وهزاله كان لورانس يعرف عن الاشتراك في الألعاب الرياضية، ولاحظ زملاؤه هذا الضعف فتعمدوا مضايقته والإساءة اليه ، وكانت نتيجة ذلك بطبيعة الحال انه احجم عن صحبتهم واتجه الى صحبة الفتيات.

ويقول وليم هويكن انه مر ذات يوم على المدرسة وقت انصراف التلاميذ منها فشاهده يسير وسط فتاتين وبقية التلاميذ من خلفه يعيرونه ويتغنون ببيت من الشعر مما يتغنى به التلاميذ عادة بهدف معاكسة اقرانهم ومشاكستهم معادة ان برت (وهو الاسم المختصر لهربرت) مخنث تروقه صحبة الفتيات

وجاهد الغلام حتى لا يظهر عليه الاكتراث بسخريتهم منه، ولكن عينيه كانتا تتقدان بالغضب والعذاب، ولأنه كان من الناحية البدنية اضعف من ان يذود عن نفسه غائلة تهكمهم فقد استطاع بمضي الوقت ان يدافع عن نفسه بسلاح حاد هو لسانه اللاذع ، ويذكر احد زملائه من الطلبة فى تلك الآونة أن لورانس عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره كان يلجأ فى اخراسهم الى تعليقاته المرة القاسية ولعل اكبر اذلال واجهه فى صباه هو سخرية صرافى شركة المناجم منه، فقد كان من عادة والده ان يرسله لتسلم اجره الاسبوعي نيابة عنه فكان الصبى الهزيل يضيع فى زحمة العمال الكبار الذين يتجمعون لتسلم اجورهم ، وكان يحلو للصرافين ان يزيدوا من محنته بالتهكم عليه وعلى والده السكير على مرأى من جميع الحاضرين وسمعهم، ويصور لورانس فى روايته «ابناء وعشاق» مقدار ما كان يتعرض له من مذلة ومهانة عندما يتوجه الى مكت

صرف أجور العمال بدلا من والده، فيتهكم عليه الصراف بقوله: «هل بلغ السكر بأبيك مبلغا يحول بينه وبين الحضور كى يتسلم اجره بنفسه ؟».

لقد كان اخواه الاكبر سنا يتعرضان لنفس التهكم ولكنهما كانا يملكان من الجرأة ما يجعلهما يردان على سخرية الصراف بسخرية مماثلة، ولكن انى للصبى ان يفعل مثلهما فحياؤه الجم يعقد لسانه

وعندما بلغ لورانس الثانية عشرة من عمره حصل على منحة دراسية مكنته من الالتحاق بمدرسة نوتنجهام العالية، وتدل سجلات هذه المدرسة العتيقة ان الطالب دافيد هربرت لورانس التحق بها فى ١٤ سبتمبر ١٨٩٨، ولكن مكافأة المنحة - وهى خمسة عشر جنيها فى العام - لم تكد تكفى لتغطية نفقات الدراسة والسفر المستمر ذهابا وإيابا بالقطار بين قريته ايستوود ونوتنجهام ، وأوشكت ضآلة المنحة أن تحول بينه وبين مواصلة التعليم لولا إصرار الأم وتصميمها على ان توفر لابنها كل ما تستطيع حتى يستكمل تعليمه فيهرب من المصير القاتم الذى كان حتما سينتظره لو ان تعليمه توقف عند ذلك الحد، وهو العمل كأبيه تحت باطن الارض فى مناجم الفحم، واقتضى ذلك العزم منها بذل تضحيات هائلة ، فضغطت مصروفات البيت على الرغم من ضآلة دخلها.

ولعبت المنحة التى حصل عليها لورانس لمواصلة دراسته فى مدرسة نوتنجهام العالية دورا حاسما فى حياته، فقد فتحت امامه افاقا كان من الجائز ان تظل موصدة فى وجهه الى الأبد، ولكن هذه

المنحة كانت كذلك سببا في تدهور صحته . فقد انهكه السفر المستمر وكان يخرج من بيته في زمهرير الشتاء في السابعة صباحا ليعود اليه في المساء في نفس الميعاد، ومن جراء ذلك بدا يسعل سعالا حادا ظل يلازمه طوال حياته، وفي مدرسة نوتنجهام العالية بدا لورانس ينسى سوء معاملة مدرسة وايتهد واستخدامه العصا كأسلوب لا محيص عنه في التربية والتعليم، وداخله الرضا والارتياح لأسلوب القس جيمس جو معلمه الجديد المتسامح الموهوب الذي يفيض حيوية ونشاطا، وبالرغم من الاعتقاد الشائع الذي يردده ت . س اليوت، وغيره بأن لورانس لم يكن متعلما فإنه يبدو ان التعليم الذي تلقاه في مدرسة نوتنجهام العالية كان ممتازا وراقيا، زاده عمقا وامتيازا انتظامه في الدراسة في بعض المعاهد العليا بعد تخرجه في هذه المدرسة. ويرى ف . ر. ليفز ان التعليم الذي حصل عليه لورانس في هذه المدرسة . افضل من اي تعليم كان من الممكن ان يحصل عليه في اي معهد آخر، وتتلخص ميزة هذا التعليم في قدرته على تطوير عبقريته وإنضاجها الى اقصى حد ممكن . ومن المفارقات التي تدعونا الى الابتسام ان نعلم ان سجلات مدرسة نوتنجهام العالية تشير الى تفوقه في الرياضيات في حين انها تسجل تخلفه في مادة الإنشاء في اللغة الإنجليزية

وفي تلك الفترة من حياته كان لورانس على صلة وثيقة بامرأة تدعى مس رايت كانت تعاونه في فهم مايستغلق عليه فهمه من الدروس . وفي القصة التي كتبها بعنوان «الفتاة الضائعة» في عام ١٩٢٠ نراه يشيد بفضل هذه المرأة عليه، ويقدم لنا لورانس في هذه

القصة صديقته مس رايت في صورة مربية تدعى مس فروست تعمل في خدمة «الفتاة الضائعة» . ويدعونا هذا إلى أن نذكر ان لورانس يستمد مادته الروائية من واقع الحياة كما ان شخصياته الروائية حقيقية، وليست من نسج الخيال. ولكنه لا ينقل تجارب هذه الشخصيات من الواقع بحذافيره فهو يخلط تجارب واقعية لعدد من الاشخاص ثم ينسبها الى شخصية واحدة من شخصياته الروائية.

وقد خريف عام ١٩٠٢ التحق لورانس بالتدريس في المدرسة البريطانية في ايستوود على اساس ان يقوم بالتدريس في الصفوف الاولية وان يستكمل دراسته في نفس الوقت على يد ناظر المدرسة . واستمر عمله في مهنة التدريس حتى صيف عام ١٩٠٦ ، وضمن لورانس كثيرا من تجاربه خلال هذه الفترة في شخصية اورسولا التي رسمها في روايته «قوس قزح» (١٩١٥) ، ولم يكن لورانس موفقا في عمله كمدرس فقد اقتضت منه مهنته الشاقة ان يجمع تلاميذ بضعة فصول في حجرة دراسية واسعة يصعب فيها السيطرة عليهم وعلى مشاغباتهم وتناحرهم الذي لا ينتهي ، الامر الذي حدا به الى ان يصف تدريس ابناء عمال المناجم بأنه عمل متوحش . وينحي هوبكن - الذي كان يعرفه معرفة وثيقة في تلك الفترة - باللائمة على لورانس لانه بدأ حياته كمدرس في مسقط رأسه ايستوود وذلك لأن معرفة اولياء الامور به وبعائلته وأصلها الاجتماعي لم تساعده على اكتساب احترامهم . وعندما اشتغل بالتدريس لم يكن

راتبه السنوى يزيد على خمسة جنيهات ارتفعت الى ثلاثة اضعافها فى خلال الثلاث سنوات التالية.

وتأثر لورانس بقانون التعليم الصادر فى عام ١٩٠٢ الذى نص على تدريب المعلمين فى مراكز محددة للتأهيل التربوى ، وطبقا لهذا القانون تعين على المدرسين الذين يعملون فى منطقة ايستوود - ومن بينهم لورانس وصديقته جيسى تشامبرز - ان يلتحقا فى خريف ١٩٠٣ بمركز تدريب المعلمين فى ايلكستون وتتضارب الاقوال بصدد حياة لورانس فى تلك الفترة (من ١٩٠٣ إلى ١٩٠٥) ففى حين تذكر جيسى تشامبرز انه كان سعيدا فى ايلكستون نجد ان صديقه جورج نيفل يخالفها فى الرأى.

وهناك بعض الشواهد الاخرى التى لا تؤيد جيسى تشامبرز فيما تذهب اليه منها رواية «قوس قزح» التى ضمنها لورانس كثيرا من تجاربه فى خلال هذه الفترة . ويجدر بنا فى هذا الصدد ان نذكر انه استمد شخصية اورسولا من فتاة حقيقية اسمها لوى باروز تعرف بها فى ايلكستون وانه يعكس كثيرا من تجاربه وتجارب لوى باروز فى شخصية اورسولا. ولعل شخصية توماس بيكروفت ناظر المدرسة فى ايلكستون الذى يظهر فى رواية «قوس قزح» تحت اسم مستر هاربى - كانت ابغض شىء الى قلبه. ويرسم له لورانس فى هذه الرواية صورة كاريكاتورية لطغيانه وغطرسته وبالرغم من ان جيسى تشامبرز تقول ان علاقة لورانس بهذا الناظر كانت ودية للغاية فإن الشواهد فى رواية «قوس قزح» وفى غيرها تنفى ذلك، وفى هذه الشواهد ان جورج نيفيل يؤكد لنا ان ذلك

الناظر كان مكروها من جميع المدرسين ، وان علاقة لورانس به لم تكن على مايرام .

لم يكن اهتمام لورانس بلوى باروز قاصرا على تصويره اياها فى شخصية اورسولا فى «قوس قزح» بل انه عبر عن اهتمامه بها فى شعره، كانت لوى تصغره بعامين ونصف ، وكان والدها الفريد باروز يهوى الحفر على الخشب.

ودفعته هذه الهواية الى انشاء جمعية للحفر على الخشب ، ويصور لنا لورانس فى «قوس قزح» هذا الرجل على انه شاب حالم مثل الشاعر راسكين تنصرف هوايته الى الحفر القوطى على الخشب.

وفى مركز تدريب المعلمين فى ايلكستون استطاع د. هـ . لورانس- بفضل رعاية ناظر المدرسة مستر توماس بيكروفت الذى تتلمذ على يديه - ان يفوز فى ديسمبر عام ١٩٠٤ بالمرتبة الاولى بين جميع المتقدمين فى كل من انجلترا وويلز لامتحان منحة دراسية تعرف باسم منحة الملك الدراسية. وكان تفوقه فى اجتياز هذا الامتحان سببا فى لفت النظر الى كفاءته العلمية، وفى عام ١٩٠٥ تقدم الى امتحان لندن الذى عقد فى نوتنجهام للحصول على شهادة الثانوية العامة.

ولكن التوفيق لم يحالفه فى هذا الامتحان مثلما حالفه فى الامتحان الاول فكان ترتيبه فى هذه المرة فى الصفوف الثانية. وبفضل ما اجتازه من امتحانات اصبح للورانس الحق فى الحصول على منحة دراسية مكنته من مواصلة الدراسة فى جامعة - كلية

بوتنجهام ، ولكنه لم يستطع الالتحق بهذه الجامعة فور حصو
على المنحة ، نظرا لانه لم يكن يمتلك الرسوم المقررة - وه
عشرون جنيها- كان يتعين عليه ان يدفعها مقدما، وهنا تدخلت
واظهرت اصرارا على ان يواصل ابنها دراسته العليا مهما كـ
الظروف ، ودفعته إلى الاشتغال بالتدريس لمدة عام (٩٠٥
١٩٠٦) استطاع خلالها ان يوفر كل ما يمكن توفيره فضلا
انها شدت الحزام على بطنها وبطون افراد العائلة ، وفى
العام بالذات توفر لورانس على كتابة اولى رواياته «الطاو
الابيض (١٩١١)

وفى حين كان يبذل كل جهده لتوفير كل ما يستطيع من مـ
لمواصلة دراسته، كانت العائلة تجتاز ضائقة مالية شديدة، وكـ
تكأة (مخدة) حجرة الجلوس تحتاج الى تنجيد، ولكن ظروف العـ
القاسية حالت دون ذلك، الامر الذى اضطر لورانس الى اصلاحها
صديق العائلة جورج نيفيل. ويذكر نيفيل عن تلك الفترة انه ر
والدة لورانس ذات يوم تنخرط فى البكاء لان زوجها عاد من عه
وهو يحمل ١٤ شلنا وخمسة بنسات ونصفا فقط هى كل ما تقاضـ
عن اسبوع من العمل المضنى الشاق لان المنجم كان يواجه حينـ
ظروفا سيئة . وبالرغم من ذلك فقد ظهر د هـ لورانس فى حـ
جديدة من قماش العائلة، ولما وقعت انظار ابيه عليها فغر فاه دهـ
وساله إذا كان قد دفع ثمن الحلة التى يلبسها ام انه اشتراها عـ
الحساب ، الامر الذى جعل موقفا يخرج من البيت مغاضبا ويصـ
الباب وراءه فى عنف . وان دلت هده الحادثة على شيء فانها ،

على مقدار ما يدلنه الام من تضحيات من اجل ابنائها رغم ما كانت فيه من ضنك.

فى سبتمبر عام ١٩٠٦ اى فى نفس الشهر الذى بلغ فيه لورانس الحادية والعشرين من عمره التحق بجامعة - كلية بوتنجهام التى كان فيها نوعان من الدراسة ينتهى احدها بالحصول على درجة علمية فى الاداب او العلوم البحتة من جامعة لندن، اما الدراسة الأخرى فكانت تربوية ومدتها سنتان، وهى دراسة حرة لا تنتهى بالحصول على اية درجة علمية، وبالرغم من ان نية لورانس الاصلية كانت تتجه فى بادىء الأمر الى الدراسة من اجل الحصول على درجة علمية فإنه تخلى عنها عن طيب خاطر وارتضى لنفسه متابعة المنهج الاسهل الذى لا يقتضى من الطالب الحصول على درجة علمية لان ذلك يوفر له فسحة من الوقت استطاع ان يكتب فيها اولى رواياته «الطاووس الابيض» ويجدر بنا فى هذا الصدد ان نذكر اننا نلتقى على صفحات هذه الرواية بشخصية حارس الصيد افابيل الذى يتكرر ظهوره فيما بعد تحت اسم «ميلورز» فى اخر رواية قيض لـ . د. هـ . لورانس ان يكتبها وهى «عشيق الليدى تشاترلى» (١٩٢٨) التى درسناها بالتفصيل فى موضع اخر * . قلنا انه من المفارقات ان نعلم ان سجلات مدرسة بوتنجهام العالية تشير الى تخلف د. هـ. لورانس فى مادة انشاء اللغة الانجليزية، وقد تكررت هده الظاهرة ايام الطلب فى الجامعة ، اذ كان اساتذته يعترضون بشدة على ما يكتبه من موضوعات انشائية . وبالرغم من انه كان يتصرف فى تلك الفترة

* انظر كتابى «الادب والجنس» ، دار أخبار اليوم ١٩٩١

إلى كتابة «الطاووس الابيض» التى وجد يسرا فى نشرها (فقد نشرها له اول ناشر عرضت هذه الرواية عليه) فإن اساتذته فى الجامعة كانوا ينتقدون كتابته الإنشائية نقدا شديدا ، فضلا عن ان مجلة الجامعه رفضت ان تنشر له قصيدة نشرها فيما بعد فى مجموعة قصائده. وكان ذلك بطبيعة الحال يسبب له ضيقا عظيما، الامر الذى خيب امله فى هيئة التدريس وافضى الى انعدام ثقته بها، ويمكن الرجوع الى روايته «قوس قزح» اذا اردنا ان نتبين حقيقة موقفه منها، ومن المفارقات الغريبة ان كبريات المجلات الادبية كانت اكثر تقديرا لقصائده من مجلة الطلبة الجامعية، فقد اقبلت هذه المجلات على نشر شعره وسرعان ما تبين الشاعر الكبير ازرا باوند مافيه من حداثة.

اتجه د. هـ. لورانس فى بداية حياته الفنية – وهو لا يعدو التاسعة عشرة من عمره – الى قرض الشعر، وكان يحلم فى يفاعته بتكريس حياته لكتابة الشعر، ولكن اصله الاجتماعى المتواضع جعله يشعر بالخجل من ان يراوده مثل هذا الحلم، فقد اسر لجيسى تشامبرز فى يوم من الايام بأن الناس سيهزأون بابن عامل المناجم يتخذ من قرض الشعر مهنة له ، وحاولت جيسى ان تشد من ازره وتهون عليه فأكدت له ان عمل ابيه لا يشين شعره فى قليل او كثير، وفكر لورانس فى ان يكتب نثرا ، واتفق مع جيسى على ان يكتب كل منهما رواية ثم يعقدان المقارنات بين روايتيهما .

واقترح عليها اتباع خطة عمل تتلخص فى ان يبدأ كل منهما بزوجين (اى اربع شخصيات) ثم يطور العلاقة بينهما، وقال لورانس

فى دفاعه عن هذا المنهج ان معظم روايات جورج اليوت تنتهجه ، وانه لا يبغى انشاء حبكة روائية لأن الحبكة الروائية تبعث فيه الملل، وفى عام ١٩٠٦ سلم لورانس ما كتبه لجيسى - وهو مخطوط رواية «ابناء وعشاق» حتى تبدى رأيها فيه.

كان وليم اخو لورانس الاكبر متعلقا بأمه اشد التعلق. وعندما كانت الفتيات فى ايستوود يترددن عليه فى بيته كانت الام تعمل كل ما فى وسعها للتخلص منهن، ويعتقد د. هـ. لورانس ان اخاه وليم اصابه الانهيار الذى افضى الى موته عندما حاول ان يفلت من قبضة امه عليه بالنزوح الى لندن والاشتغال فيها. وفى لندن بدأ وليم يتخلص من سيطرة امه عليه ووقع فى غرام فتاة تافهة اسمها جيسى دينيس تعمل بالاختزال ، وعندما جاء بها وليم الى ايستوود لتزور عائلته وتتعرف عليها عاملتها امه بأدب ولكن كان من الواضح انـ تفاهتها لا تروقها وساء الام ان يحب ابنها فتاة تافهة تعيش من اجل الاستمتاع بالحفلات والرقص ولا تعنى بشىء غير اناقة ملبسها، ويلتقى القارىء بهذه الفتاة الضحلة التافهة على صفحات رواية «ابناء وعشاق» تحت اسم لويزا ليلى دينيس ويسترن

وحيث اراد لورانس الالتحاق بعمل فى مصنع فى مدينة نوتنجهام لانتاج الاطراف الصناعية للمشوهين وذوى العاهات طلب الى اخيه وليم الذى استطاع ان يشق طريقه بنجاح فى لندن ان يساعده بما لديه من خبرة فى هذا الشأن، وكتب له وليم طلبا للاستخدام مكنه من التقدم لشغل وظيفة شاغرة فى هذا المصنع واصاب الغلام لورانس

الفزع عند مرأى الاطراف الصناعية لأول مرة فى حياته ، فلم يك يخطر على باله قط ان تكون هناك أرجل صناعية خشبية ، فضلا ع ان تكون هذه الارجل سلعة تشترى وتباع. وتسجل لنا رواية لورانس «ابناء وعشاق» قصة اشتغاله بهذا المصنع ، كما انها تصور شعو الفزع الذى اصابه عند رؤية الاطراف الصناعية لأول مرة ف حياته، ولم يعمل لورانس فى هذا المصنع مدة طويلة بعكس ما ج فى «ابناء وعشاق» ولكنه استطاع فى خلال المدة القصيرة الـ اشتغل فيها (وهى لا تزيد على ثلاثة أشهر) ان يستوعب كل تفاصـ العمل فيه وان يستخدم هذه التفاصيل فيما بعد فى اعماله الروايـ وتقاضى الغلام من عمله بالمصنع اجرا اسبوعيا قدره ثلاثة عـ شلنا فى الاسبوع، واقتضى العمل منه السفر يوميا من ايستوود نوتنجهام باستثناء يوم الراحة الاسبوعى، وبلغت ساعات عمله اثـ عشرة ساعة يوميا. وعلى الرغم من ان لورانس - كما قلنا - امضـ فترة قصيرة لا تزيد على بضعة أشهر ، ككاتب فى مصنع الاطراف الصناعية، فإنه اهتم اهتماما بالغا بتسجيل تفاصيلها فى روايته «اب وعشاق» فى حين انه اغفل تسجيل الفترات الطويلة التى قضاها نوتنجهام فى طلب العلم - وهى ثلاث سنوات فى مدرسة نوتنجهـ العالية ، وسنتان فى جامعة - كلية نوتنجهام - وكان عمله فى مصـ الاطراف الصناعية يتطلب منه قراءة خطابات العملاء الواردة المصنع باللغتين الفرنسية والالمانية وترجمتها الى اللغة الانجليـ وتسجيلها فى دفتر خاص ثم الرد عليها ، وهى كلها خطابات يطـ فيها اصحابها ان يمدهم المصنع بما يحتاجون اليه من مختلف الاطر

الصناعية ، وتصور لنا رواية «ابناء وعشاق» علاقته الطيبة الودية بالفتيات العاملات بالمصنع وترسم لنا صورة رقيقة مهذبة لهؤلاء الفتيات ولكن جورج نيفيل الذى كان يعرف لورانس معرفة وثيقة فى تلك الفترة من حياته يؤكد لنا ان هذه الصورة الرقيقة تجافى الواقع تماما.

وفى عام ١٩٥٠ كتب مدير مصنع الاطراف الصناعية يقول: انه يذكر الغلام لورانس جيدا فى الفترة القصيرة التى اشتغل فيها بالمصنع - ويصفه بانه كان شابا هادئا ومتحفظا للغاية طويل القامة عزوفا عن الكلام فى اوقات العمل وخارجها . ويضيف هذا المدير انه لم تسنح له فرصة يتبادل فيها الحديث معه، خصوصا لانه كان يسارع بمغادرة المصنع للحاق بالقطار الذى يقله الى قريته ايستوود. ويذكر جورج نيفيل ان العاملات الرقيقات اللاتى صورهن لورانس فى روايته ، كن فى واقع الامر فتيات وقحات خشنات من نوع كمساريات الترام اللاتى صورهن فى قصته «تذاكر من فضلك» . وفى هذه القصة نرى عددا من هولاء الكمساريات يدفعهن الغيظ من مفتش تذاكر الى الاحاطة به وطرحه ارضا ونزع ملابسه عنه، ويقول جورج نيفيل ان لورانس مر بتجربة مماثلة مع عاملات المصنع فقد التففن حوله فى يوم من الايام وانقضضن عليه بعيدا عن الانظار فى احد مخازن المصنع ، وحاولن - وهو يقاوم فى استماتة - أن يكشفن عن الذكر المستور فيه . ويضيف نيفيل ان هذه الحادثة تركت فى نفسه شعورا عميقا بالاشمئزاز من النساء كما تركته لاهث الانفاس، وفى رايه انها - فضلا عما عانى فيها من انهاك - كانت سببا فى اصابته بالتهاب رئوى حاد فى شتاء ١٩٠١ - ١٩٠٢..

وكانت فجيعة عائلة لورانس فى وفاة وليم فى لندن عنيفة فقد كان يفيض حيوية وشبابا وفى الثالثة والعشرين من عمره . وجاءت وفاته نتيجة اصابته بالتهاب رئوى . وحين سافر والداه إلى لندن وجداه فى غيبوبة حالت بينه وبين التعرف عليهما . وتولت الأم بما تتسم به من نظرة عملية إلى الأمور إنهاء كل اجراءات الوفاة المعقدة ونقل الجثة إلى ايستوود ويبدو أن وجود زوجها بجوارها كان عديم الفائدة فقد شكت مسز لورانس إلى جيسى تشامبرز فيما بعد أنه لم يقم بتقديم أدنى مساعدة لها فى تلك المحنة . وبعد أن عاشت عائلة لورانس فى منزلها القديم فى ايستوود مدة اثنتى عشرة سنة انتقلت إلى بيت آخر مجاور لانها لم تعد تطيق العيش فى مسكنها القديم بعد وفاة ابنها وليم .

ومرت مسز لورانس بمحنة أخرى عندما أصيب ابنها د. هـ لورانس - كما أسلفنا - بالتهاب رئوى كاد أن يودى بحياته لولا ا تولت الأم رعايته والسهر عليه حتى استطاع فى نهاية الأمر ا يسترد صحته . وكان انتزاع الأم لابنها من براثن الموت ضرور لاستمرارها فى الحياة ، فقد أصبح ولدها الخيط الوحيد الذى يربطها بها . وبعد وفاة أخيه الأكبر وليم ارنست عاشت هذه الا تسع سنوات من أجل ولدها دافيد ، تماما مثلما عاش دافيد من أجلها .

كان لورانس يظن أن الالتهاب الرئوى الذى اصابه فى يفاعته مسئول عن اصابته فيما بعد بمرض السل الذى فتك به . ولكن الطبيب الاخصائى فى الأمراض الصدرية الذى كان يعالجه فى

أخريات عمره يرى غير هذا الراى . فقد كتب هذا الطبيب خطابا فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٢ يقول فيه : إنه من العسير تحديد الوقت الذى بدأ فيه السل يتسلل إلى جسده وانه شخصيا لا يعتقد وجود أية علاقة بينه وبين الالتهاب الرئوى الذى هاجمه فى يفاعته . ويضيف هذا الاخصائى أنه من المحتمل أن يكون مرض السل بدأ يتسلل إليه قبل أول نزيف أصيب به فى منتصف عام ١٩٢٠ . وعندما داهم الالتهاب الرئوى لورانس فى شبابه كان يجلس فى الشتاء - حين يصفو الجو بعض الشىء - على مقعد فى حديقة منزله ، وقد تدثر بالبطاطين معرضا جسده لأشعة الشمس . وأحزن مرضه أصدقاءه من أسرة تشامبرز التى كان يتبادل الرسائل معها عن طريق مستر تشامبرز رب العائلة الذى كان يحضر من مزرعته إلى قرية ايستوود كل يوم لتوزيع اللبن فيها . وفى أحد الأيام أخذ مستر تشامبرز الغلام المريض معه فى عربة نقل اللبن إلى المزرعة حيث استقبله مع زوجته بحفاوة بالغة وترحاب خالص كما لو كان ابنا لهما وعندما رآه أولاد عائلة تشامبرز رق قلبهم له وزال جفاؤهم نحوه . وحين بدأ لورانس يسترد صحته أرسلته والدته لقضاء شهر للنقاهة فى بيت أختها الواقع على ساحل لينكولن شير ذى المناظر البديعة الخلابة . وانتشى الغلام بمناظر هذا الساحل الجميل وبعد عودته إلى قريته استمر فى زيارة مزرعة عائلة تشامبرز ولم يكن لورانس حينذاك يحمل نحو جيسى تشامبرز أية عاطفة ، فقد انحصر جل اهتمامه بوالديها وأخويها الكبيرين آلان و هيوبرت . ولكنه بدأ يشعر بوجودها مثلما بدأت تشعر بوجوده . وأثار حديثها المثقف فيها رغبتها فى مواصلة التعليم ، الأمر

الذى اضطر والدتها فى تهيئة الامر الى السماح لها بالعودة للمدرسه لتعلم وتتعلم فى الوقت نفسه . واصبح لورانس يشارك عائلة تشامبرز الأعباء المنزلية اليومية . وهو يجد فى ذلك متعة خالصة ، فينظف المدفأة لربة البيت ويقشر لها البطاطس . كما كان يشترك مع رب البيت وأولاده فى جمع الحصاد عندما يحين وقته   واصبح لورانس أثيرا إلى قلب الابوين .

وقال عنه رب البيت . «إن العمل يصبح متعة فى وجود برت» .

كما قالت عنه ربة البيت : «إننى أحب أن أكون بجوار برت عندما أذهب إلى السماء» .. وبعد انقضاء عدة أعوام كتب لورانس فى عام ١٩٢٨ يقول إن قلبه لايزال متعلقا ـ كما كان فى صباه ـ بكل شىء يتصل بعائلة تشامبرز ومزرعتهم   وليس أدل على عمق الأثر الذى تركته فيه عائلة تشامبرز من أنه اتخذ من مزرعتها مكانا يقع فيه كثير من أحداث روايته «أبناء وعشاق» .

وتذكر أيدا لورانس فى مذكراتها ان جيسى تشامبرز استطاعت أن تجذب أخاها إليها بفضل جديتها وشدة اهتمامها بالكتب بخلاف غيرها من فتيات قرية ايستوود اللاتى ينصرفن إلى البحث عن عشاق ومحبين وتستاثر الملابس الجديدة بكل اهتمامهن . وكانت جيسى تنفر من خشونة إخوتها الذكور الاجلاف . الأمر الذى دعاها إلى الترحيب بصداقة لورانس والاستماع إلى حديثه وشاركته اهتماماته الثقافية وبذلك لعبت هذه الفتاة دورا مهما فى مساعدة لورانس على تطوير أفكاره فى شئون الأدب والحياة . وحين دعاها لورانس إلى زيارته فى منزله رفضت دعوته فى بادىء الأمر . فاتهمها بالرغبة فى تحاشى

والده السكير والخوف من مقابلته . وبالرغم من مقتها للخمور ومدمنيها فقد أكدت له الفتاة أنه ليست هناك علاقة بين احجامها عن زيارة عائلته ورغبتها فى تجنب والده . وأراد لورانس أن يدخل الطمأنينة إلى قلبها فأكد لها أن أباه لا يجىء إلى البيت إلا نادرا . وتحققت جيسى تشامبرز من صدق هذا القول عندما زارت عائلة لورانس فيما بعد . ولاحظت جيسى جو التوتر الذى يسود البيت وأفزعها هذا التوتر الذى ردته إلى حزن الأم على وفاة ابنها وليم إرنست ، وكراهيتها لزوجها وحبها العارم لولدها دافيد   وعندما توثقت عرى الصداقة بين جيسى وعائلة لورانس بدأت والدة لورانس فى تنظيم الرحلات لها ولأولادها   وكان د. هـ . لورانس برأس الجماعة فى تلك المناسبات ويرشدها إلى الأماكن التى تستحق المشاهدة ويعلمها اسماء ما تصادفها فى طريقها من طيور وزهور . وكانت هذه الرحلات احب الاوقات جميعها إلى نفس جيسى . وخاصة تلك الأوقات التى يتمكن فيها لورانس من الانفراد بها بعيدا عن مراقبة الأم وسائر أعضاء الجماعة المتجولة .

وتذكر جيسى تشامبرز فى كتابها عن د. هـ . لورانس حادثة لها دلالتها تتلخص فى انها رأته فى أثناء احدى الرحلات التى كان يصحبها فيها مع بقية أفراد عائلته منكبا على شىء فى وسط الطريق وعلى وجهه علامات الانزعاج والم ممض واستغراق عميق فى التفكير . فلما اقتربت منه رأته ينحنى على مظلة يتفحصها فى لوعة وحسرة وعندما سألته عما دهاه اجابها بقوله «إن مظلة أخى قد انكسرت وستمرتاع والدتى إذا رجعت بها مكسورة إلى البيت» . وتدل هذه

الحادثة على أنه ابن أمه التى بسطت نفوذها الطاغى عليه . وتضيف جيسى قائلة إنه من المحتمل أن تكون هذه الحادثة بداية لميلاد عاطفه المودة والألفة التى نشأت بينهما . ومما يدلنا على أهمية هذه الحادثه أن لورانس أشار إليها فى روايته «أبناء وعشاق» الأمر الذى يوكد لنا ـ كما أسلفنا ـ أن لورانس يستمد مادته الروائية فى واقع الحياة واستغرقت كتابة «أبناء وعشاق» عامين . وصدرت هذه الرواية فى عام ١٩١٣ بعد عام واحد من الانتهاء من تأليفها . وعندما فرغ لوراس من كتابتها فى المرة الأولى عرضها على صديقته جيسى تشامبرز لإبداء الرأى فيها . فألحت عليه باللائمة ووصفت روايته بأنها فاترة ومملة لا حياة فيها . وطلبت منه أن يعيد كتابتها فوافق على ذلك ولكنه طلب من جيسى أن تدون ذكرياتها عن علاقته الأولى بها حتى يفيد منها فى إعادة كتابة روايته . وأدمج لورانس بالفعل جانبا كبيرا من ذكريات جيسى النابضة بالحياة فى روايته وعندما عرض النسخة الثانية من «أبناء وعشاق» عليها لاحظت أنه اقترب فيها من الواقع أكثر من ذى قبل كما لاحظت أن ينابيع الحياة قد بدأت تتفجر فيها ولكن آلمها أنه أغفل الدور الذى لعبته ميريام (وهى الشخصية الروائية التى تمثلها) فى تطور بطل الرواية من الناحية الفنية وأنه غدر بها ورسم صورة مشوهة لها بسبب سيطرة أمه عليه بشكل لم يستطع الفكاك منه .

وهناك شبه كبير بين مذكرات جيسى التى نشرتها بعنوان «د. هـ لورانس سجل شخصى» بحروف أولى مستعارة ، وما ورد فى روايته

«أبناء وعشاق» من حقائق . ولكن تفسير لورانس لهذه الحقائق يختلف عن تفسير جيسى لها ومما لا ريب فيه أن التزام لورانس بالواقع لم يمنعه من ان يلبس بعض مادته الروائية المستمدة من هذا الواقع لباسا من الخيال دون ان يحيد عن جوهر الحقيقة من ناحية وبطريقة ناقدة للذات تخلو من الشفقة على النفس من ناحية أخرى . وينبغى أن نذكر أيضا أن لورانس لم يكن يكتفى بفهمه الغريزى الصائب للطبيعة النسائية ، بل كان يطلب إلى النساء اللائى يعرفهن أن يدون ما كن يشعرن به أو ما كان يمكن أن يشعرن به فى بعض المواقف ، وتقول فريدا زوجة لورانس أنه فى المراحل الأخيرة من كتابة روايته «أبناء وعشاق» كان يطلب إليها ان تصف ما عسى أن تحس به أمه فى مواقف معينة . ولعل الصواب لا يجانبنا إذا قلنا إن اسهام جيسى فى هذه الرواية يتلخص فى تسجيل الحقائق وتقديمها إليه حتى يصوغها بخياله فى قالب فنى . ولكن لورانس لم يكن يقبل فى جميع الحالات ان يأخذ بوجهة نظرها . فقد اعترضت هذه الفتاة مثلا على قوله فى «أبناء وعشاق» أن بول (الذى يمثل لورانس) ، وميريام (التى تمثل جيسى) كانا يتحسسان طريقهما بين الفلاسفة وأنهما قرآ معا شوبنهور وهربرت سبنسر ونيتشه . ويضيف لورانس أنه كان يجد فى قراءة هؤلاء الفلاسفة متعة كبيرة فى حين كانت آراؤهم تؤلم الفتاة ألما واضحا . وكان اعتراضها على ذلك أنه لا يصور غرام المراهقين «بول» و«ميريام» من وجهة نظر المراهقة بل أنه يعالجه من وجهة نظر رجل ناضج فى السادسة والعشرين من عمره . وتقول جيسى فى هذا

الصدد إنه ليس من المعقول أن ينصـرف غـلام مثل بول فى السابعة عشرة من عمره وفتاة مثل ميريام فى السادسة عشرة إلى قراءة أعمال الفـلاسفة . وبالرغـم من ان لورانس لم يسـتجب لهذا الاعتـراض الذى أثارته جيسـى فإنه اجـرى فى روايته كثـيرا من التعديلات بناء على مشـورتهـا دون أن يضيق ذرعـا بنقدها له . ومن العسير علينا احيـانا أن نتبين فى هذه الـرواية الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال . فنحن نطـالع ان مـيـريـام أسلمت جسدها باردا لبـول . ولكنه يصـعب علينا ان نتأكد من صدق هذه الواقعة . ومهما كان الأمر فالـذى لاشك فيه أن عاطفة جيسى تشامبرز نحو لورانس تحولت على حد قولها - إلى شىء أقرب ما يكون إلى العبادة الدينية .

ولكن حب د. هـ. لورانـس لجيسى لم يكن حبـا خالصا . فقد انصرف الكثير من عـواطفه نحو أخيها آلان ويدعـونا هذا إلى ان نشير إلى الكتاب الذى ألفه ميدلتون مرى (الذى كان صديقا حميما له ثم انقلـب عدوا لدودا لـه) تحت عنوان «ابن امه» وفيه يهتم مرى بإبراز أوجـه الشبـه بين شخصيتى ادجار فى «أبنـاء وعشـاق» ، والمزارع الشاب جـورج سـاكسـتـون فى «الطاووس الأبيض» ويناقش مرى بوجـه خاص منظرا فى فصـل بعنوان «انشـودة صداقة» ، فى رواية «الطاووس الأبيض» وفيـه نجد ان عددا من الشـبان يستحمون معا فى بركـة فى وقت الحصـاد . ويذكر مـرى أن هـذا المنظـر يتكـرر فى «أبناء وعشـاق» حيث نرى بول وادجار - أخى ميريام - يعملان معا و... الف الحب بينهما فى جمع حصاد الحشـائش الجافة . ويبنى مرى على

عاطفة الحـب التى تولف بين الشابين نظرية مفادها أن لورانس كان قبل وفاة والدته يتجه فى حبـه إلى الذكور من بنى جنسـه . ولكن قد يدعـونا إلى التشـكك فى سـلامـة هذه النظرية أمران : ان لورانس كان مغرما بجيسى تشامبرز وأنه كان على علاقة جنسية بامرأة متزوجة فى قرية ايسـتوود . وليـس هناك على أية حال سبيل إلى انكار أن بول فى رواية «أبـناء وعـشاق» كـان يتجنب مـيريام فى بادئ الأمـر ويتعلق بأخيها ادجار أشد التعـلق . كان هذان الغلامـان يجتمعان معا فى العصارى ويعمـلان معا فى فـلاحة الأرض عندما يكون الجو صافيا أو فى نجـارة الخشـب فى حـجـرة فى أعـلى البيت عندمـا يكون الجو مطيرا . فضـلا عن أن بول كان يلـقن ادجـار كل ما يتعلمه من أخته أنى . وكانت ميريام تتألم حين ترى بول ينصرف عنها إلى رفقة أخيها ادجار . ويقودنا ذلك إلى ان نستعرض موقف د. هـ. لوانس من الشذوذ الجنسى . فبـالرغم من أنه يعـترف أنه يمكن للرجل أن يجد مـتـعتـه الجنسية فى معـاشرة رجل اخر فإنه يهاجم الشـذوذ الجنسى فى كتاباته وأقواله . فقد ذكر لهـنرى سـافيدج فى عام ١٩١٤ ان متعـة الرجل مع الرجل مـتعـة جسـدية فقط فى حين أن متـعة الرجل بالمرأة جسدية وروحـيـة مـعا . ومما يدل على نفـوره من الشـذوذ الجنسى مـا ترويه كاترين كارسـويل فى كتابها «الحـاج المتوحش» فقد سـمعته كاترين يقول إنه يعتبر الشـذوذ الجنسى خطيئـة فى الروح القدس لا سبيل إلى غـفرانها ويشـرح لنا لورانس مـوقفه بالتفصيل من مسـألة الشذوذ الجنسى فى خطـاب بعث به إلى برتراند راسل فى عام ١٩١٥ وفيه يقول

إنه يمقت اللواط ويأسف لأن الرجل الحديث لا يسعى إلى المرأة بدافع من الرغبة فى اكتشافها واستكناه المجهول فيها حتى يدخل فى علاقة خلاقة معها ، بل إن هدفه ينحصر أن يستعيد معها احساسا مألوفا من اللذة سبق له أن استمتع به . الأمر الذى يفضى إلى تفشى ممارسة اللواط فى العالم الحديث ، وإلى سعى الرجل الحديث إلى ممارسة العادة السرية بطريقة ملتوية وغير مباشرة مستخدما جسد المرأة كوسيلة يحقق بها غايته . وعندما ننظر إلى لورانس من الناحية النفسية فإننا نتذكر على الفور ما يذهب إليه معظم النقاد من أنه كان مصابا بعقدة أوديب بما يتضمنه ذلك من جنوح نحو الشذوذ الجنسى ورغم ان مرى تراجع بعد خمسة أعوام من كتابه «ابن أمه» عن إلصاق تهمة النزعات الجنسية الشاذة به ، فإننا نرى ناقدا آخر (هو ريتشارد ألد يجتون) يقول إن لورانس كان من الناحية الجنسية طبيعيا بنسبة ٨٥٪ وشاذا بنسبة ١٥٪ ، ويتناول الناقد جيفرى ماير فى كتابه «الشذوذ الجنسي والادب فى الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٩٣٠» (١٩٧٧) معالجة د. هـ . لورانس المثلية فى أربع من رواياته «الطاووس الأبيض» ، «نساء عاشقات» ، «عصا أدون» و«الأفعى ذو الريش»

لكن يجدر بنا أن نذكر أننا نجد بين النقاد من يعترض على القول بجنوح لورانس نحو المثلية . فقد كتب قسيس تحت اسم مستعار – هو وليم تعرتون – كتابا بعنوان «د. هـ. لورانس والوجود الإنسانى» (١٩٥١) ، يقول فيه إن النقاد بالغوا فى تأكيد مرضه

بعقدة أوديب فقد استطاع بعد وفاة والدته وكتابة روايته «أبناء وعشاق» أن يتخلص من عقدته بحيث أننا لا نرى فى كتاباته اللاحقة سوى اصداء خافتة لهذه العلة . وهناك تفسير نفسى آخر قد يوضح لنا السبب فى احتفال لورانس بالقوة والفتوة وعنايته البالغة بهما . ويتلخص هذا السبب فى أن هزاله وضعفه البدنى الذى ظل يلازمه، انتهى به إلى ان يتمنى ان يعيش فى عالم الرجولة والقوة والعافية .

وأخيرا يجب أن نعرض لاهتمامات د. هـ. لورانس الأدبية فى السنوات التى قضاها فى نوتنجهام قبل أن يغادرها إلى لندن . ولكن يجب ان نذكر فى هذا الصدد أنه اتجه إلى الرسم قبل أن يبدأ فى الكتابة وفى العشرة اعوام الاخيرة من عمره زاد اهتمامه برسم الصور . وفى الأماكن المختلفة التى زارها فى انجلترا وأمريكا الجنوبية وإيطاليا ترك لورانس عددا كبيرا من لوحاته فى ايدى الناس الذين عاش بينهم .

وبالرغم مما كانت عائلة لورانس تعانيه من فقر فقد كانت تمتلك مجموعة من الكتب الأدبية اشتراها وليم إرنست . وكانت عائلة جيسى كذلك تولى الأدب اهتمامها . وحين كانت جيسى تشامبرز فتاة صغيرة وقبل ان تتعلم القراءة والكتابة كانت تستمع إلى والدها وهو يقرا لأمها مسلسلة ورواية توماس هاردى المعروفة «تسى سليل عائلة دربرفيل» التى كانت تنشر تباعا فى نوتنجهام شير جارديان . وعندما أصبح لورانس صديقا

لهذه العائلة بدأ ينظم معها حلقات خاصة لقــراءة المسرحيات . واتخذ لورانس في هذه الحلقات موقف الآمر الناهي . ولكن مستر تشامبرز لم يغضب منه لأنه كان يحبه من ناحية ، ويعرفه معرفة وثيقة من ناحية أخرى . ولكن اراءه حينذاك في رجال الدين كانت تسبب القلق لمستر تشامبرز . ومما زاد من قلقها أن آراء لورانس في الدين ودعوته إلى المادية المتشككة بدأت تترك آثارا واضحة في ابنها الان .

ولا شك أنه من المفيد أن نتتبع قراءات لورانس في شبابه مع صديقته جيسي تشامبرز . كانت قراءاتهما المشتركة مصدر متعة لهما ليست لها حدود . قرا لورانس وجيسي معا «سجين زندا» وروايات رايدر هاجارد الخيالية ثم ارتفعت قراءتهما إلى مستوى ستيفنسون وكوبر وحركت أحداث رواية «لورنا دون» حياتهما إلى الحد الذي جعلهما يتصوران وقائعها حية ماثلة امام اعينهما . ووجدا في ديكنز ضالتهما المنشودة ، الأمر الذي حدا بلورانس أن يذكر – وهو نصف جاد ونصف هازل – ان يرى نفسه ممثلا في شخصية ديكنز المعروفة دافيد كوبر فيلد . وامتدت قراءاته مع جيسي حتى شملت أعمال شكسبير والشعراء الانجليز العانيين وأظهر لورانس إعجابه بجورج اليوت وخاصة روايتها «طاحونة على نهر الفلوس» . واستفاد لورانس من علاقته بهوبكن – وهو اشتراكي راديكالي بدأ حياته بالعمل كاتبا في منجم من مناجم الفحم ثم اسكافيا ثم صاحب محل للاحذية وملأ هوبكن أسماعه بسيل لا ينقطع من الفولكلور المحلي وحكايات عن عمال المناجم

والمزارع وتاريخ ايستوود . ومن الثابت أن لورانس استمد معظم أسماء شخصياته الروائية من أسماء جزارين وبائعي أصواف وخمور ومزارعين وترزية وقرويين كانوا يعيشون بالفعل في منطقة ايستوود وكان لورانس يعرفهم معرفة شخصية . وتذكر جيسي في هذا الصدد أنه اشتغل لفترة وجيزة في محل من محلات جزارة الخنازير حيث كان يقوم بتحرير الفواتير .

وفي أيام الطلب بالجامعة لم ينقطع لورانس عن مطالعة الكتب مع جيسي تشامبرز بدءا بقراءة كتب سهلة بسيطة باللغة الفرنسية ، ثم تدرجا إلى قراءة لوتي وبلزاك وفلوبيرت . وحضر لورانس تمثيلية «غادة الكاميليا» التي كانت سارة برنارد تمثلها حينذاك ، وتركت مشاهدة هذه التمثيلية في نفسه أثرا عميقا ، فقد اندفع خارج المسرح مضطربا فزعا ، وكتب إلى جيسي يقول لها إنه يخشى على نفسه أن تستعبده امرأة في يوم من الأيام مثلما استعبدت غادة الكاميليا حبيبها أرمان . وفي تلك الفترة قرأ لورانس مع جيسي كذلك سيرة حياة مارك رذرفورد الذاتية كما بدأت اهتماماته بالمطالعات الفلسفية ، فقرأ شوبنهور وتأثر به تأثرا بالغا . وكان مغرما بمناقشة آراء هذا الفيلسوف المتشائم مع كل من جيسي وأخيها الان وانعكس أثر شوبنهور عليه فيما أنتجه من أدب روائي . ويبدو هذا الأثر واضحا في أولى رواياته «الطاووس الأبيض» وفي رسمه لشخصية أنابل بالذات . وامتد أثر شوبنهور إلى ما أنتجه لورانس بعد ذلك من ادب روائي . ومن الأعمال الفلسفية الأخرى التي قرأها مع جيسي في شبابه «حياة المسيح» التي كتبها اللاهوتي

المعروف رينان . ولكن هذا الكتاب لم يرق له على الاطلاق ورغم ا
لورانس تأثر بقراءة توماس هكسلي وهيكل فإن أثرهما فيه لم يد
طويلا . فضلا عن أنه أقبل على قراءة هربرت سبنسر وجيمس مل
باهتمام شديد . وكان لكتابي وليم جيمس «البراجماتية» و «تنو
التجارب الدينية» أثر كبير فيه . وتعرض إيمان لورانس بالدين للاهتز
بسبب الضربات المتلاحقة التي توالت على أفكاره من جانب المذه
المادي من ناحية والمذهب العقلاني من ناحية أخرى . غير أن إيمـ
بوجود الله لم يزايله قط . ورغم نظرته التصوفية فإن مفهومه لله
اشد ما يكون غرابة . فالرأي عنده كما يشير لنا ألدوس هكسلي ا
الجنس هو سبيل الانسان في الاتصال بالذات الإلهية . فالجنس ا
مورس بطريقة تلقائية شيء مقدس . وحيث أن الله قوة كونيـ
غامضة ومظلمة (بمعنى انها تستغلق على الفهم) وحيث أن الجنس ايضـ
طاقة غريزية غامضة ومظلمة فإن ممارسته بين الرجل والمرأة هو
سبيل البشر للاتحاد بالذات الإلهية القدسية السامية ، ومن ابر
قراءات لورانس رواية تولستوي المعروفة «أناكارنينا» التي استأثر
بالكثير من اعجابه في شبابه وهو إعجاب زايله فيما بعد وتحول
احتقار جلي .

وفي العام الثاني من التحاق لورانس بالجامعة خطر له أن يتقد
بثلاث قصص للدخول في مسابقة لكتابة القصة القصيرة نظمتها جريـ
«نوتنجهام شير جارديان» التي خصصت مبلغ ثلاثة جنيهات لكل قصـ
فائزة . ونظر لأنه لم يكن يسمح للشخص الواحد بأن يتقدم بأكثر مـ

قصة فقد تخفى لورانس وراء جيسي وفتاة أخرى ، وتقدم بقصة «مقدمة» التي دفعتها جيسي باسم مستعار هو روزاليند . وقصة «الجورب الأبيض» التي وقعتها صديقة له أخرى . أما لورانس نفسه فقد دخل المسابقة بقصة «أسطورة» ، من بين هذه القصص الثلاث قيض لقصة «مقدمة» ـ التي قدمتها جيسي باسم مستعار ـ أن تفوز بالجائزة ، وفيما بعد ضمن لورانس قصتيه الأخريين «أسطورة» و«الجورب الأبيض» في أول مجموعة قصصية نشرت له في عام ١٩١٤ تحت عنوان «الضابط البروسي» . وعندما أنهى لورانس دراسته في الجامعة حصل على التقديرات الآتية : التدريس (جيد) ، القراءة (ممتاز) ، الرسم (جيد) الموسيقى (جيد) ، وقرر المشرف عليه أنه ضعيف في ضبط الفصل ، ولا شك أن ما جاء في التقرير المكتوب عن سيره الدراسي يلقي ضوءا على شخصيته . يقول التقرير إن مستر لورانس واسع الاطلاع مهذب وانه يمكن أن يصبح مدرسا ممتازا إذا وضع في المكان المناسب . وانه يفشل في مباشرة التدريس في الفصول الكبيرة العدد في مدارس البنين الموجودة في الأحياء التي تتسم بالفظاظة والخشونة ، ففظاظة الطلبة وخشونتهم كفيلة بأن تفت في عضده وتصيب تصميمه وعزيمته بالوهن ، وتثير في نفسه الاشمئزاز ، كما أنه لا ينجح في تدريس الفصول المتخلفة أو العادية ، في حين أنه من المؤكد ان يصيب نجاحا في تدريس الفصول العليا والممتازة وخاصة إذا توفرت لديه حرية التصرف . ويذكر التقرير كذلك أنه إنسان يصعب ارضاؤه ، وأنه بالرغم من طلاقة لسانه فإنه يجد أحيانا عسرا في العثور على أبسط الكلمات المناسبة للتعبير عما يريد

إن صورة لورانس لن تتضح إلا إذا ذكرنا كثرة أسفاره فى بلاد العالم المختلفة . فبعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها نراه فى الفترة من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٥ ينتقل من ايطاليا إلى سيلان إلى أمريكا ليستقر فى نيومكسيكو وفى تلك الفترة من حياته نظم كاتبنا بعضا من أروع قصائده ومقالاته ودراساته النقدية وكتب الرحلات إلى جانب بعض رواياته . وشاء القدر أن يصاب بمرض عضال أثناء إقامته فى نيومكسيكو فنصحه الأطباء بضرورة العودة إلى أوربا وعاش مدة أخرى فى إيطاليا حيث نشر روايته المثيرة للجدل «عشيق الليدى تشاترلى» عام ١٩٢٨ ، وفى ٢ مارس ١٩٣٠ لفظ لورانس أنفاسه الأخيرة . والجدير بالذكر أنه كان يحلم فى نيومكسيكو بإقامة مستعمرة يمارس فيها أتباعه ومريدوه فلسفته الداعية إلى حياة البداوة والفطرة والتلقائية بعيدا عن بشاعة الحضارة الأوربية . كما أنه سعى إلى القبائل فى استراليا ليجد لديهم ما يفتقده فى هذه الحضارة .

* * *

كتب الدوس هكسلى مقالا بالغ الأهمية تناول فيه أدب لورانس وفكره. وهو مقال يتميز بالعمق والأصالة والبصيرة النافذة ، ومن ثم حرصى على تلخيصه لأنه يلقى ضوءا غامرا على مؤلفنا الفكرى بوجه عام وموقفه من الجنس بوجه خاص .

يبدأ هكسلى مقاله بإبراز الجانب الذاتى فى انتاجه الأدبى فيقول إن لورانس يذهب إلى أنه يكتب من أجل نفسه ، الأمر الذى يدل على

ذاتية دوافعه الخلاقة . ويستطرد هكسلى فيقول إن الكتابة فى حالته قدر ومصير فضلا عن انها تعينه على شفاء روحه مما تعانيه من امراض . يقول لورانس فى هذا الشأن : «إن المرء يبدد مرضه عن طريق تاليف الكتب حيث يقدم عواطفه ويكررها حتى يتمكن من السيطرة عليها» .

كان شيطان الفن يتملكه ويحدد خط سيره لدرجة أنه كان يبدأ الرواية دون ان يعلم كيف ينهيها او حتى كيف يطور احداثها . كان يترك الأمور تجرى على عواهنها وكانت احداث الرواية تتطور من تلقاء نفسها وهو يقف امامها موقف المستسلم ، وقد بلغ استسلامه لشيطان الخلق حدا جعله يقول إنه ليس على المؤلف قبل تاليف عمل خلاق غير أن يبتهل الى الله ثم يترك الله يتمم العمل الذى بدأه . يقول لورانس فى هذا الصدد : «إننى اشعر دائما كما لو كنت أقف عاريا حتى تحترقنى نار الله العلى القدير . وإذا اراد المرء ان يكون فنانا فلابد أن يكون متدينا» .

ويعبر الدوس هكسلى عن سخطه على الكتاب الذى ألفه الناقد ميدلتون مرى عن لورانس بعنوان «ابن أمه» لأنه يعنى بتحليل سيرة حياة مؤلفنا فى ضوء اراء سيجموند فرويد فى علم النفس ويتجاهل فنه وعبقريته الخلاقة . ويثنى هكسلى على راى الناقد الكبير ف . ر . ليفز فى د . هـ . لورانس ، ويذهب إلى ما يذهب هذا الناقد من وجود تشابه عظيم بينه وبين الشاعر الرمزى الكبير وليم بليك . ويشرح ليفز هذا الشبه فيقول إن لورانس كان يملك نفس موهبة بليك فى

معرفة الموضـوعات التـي تثير اهتمامه ونفس قدرته على التميز بي عواطفـه الخاصة والعـواطف التقليدية العدمة ونفس الأمانة المروعه المخيفة

ويسعى هكسلى إلى تحليل موهبة لورانس الأدبية بقوله إنه يتمي بحساسية مفرطة سبق للشاعر وليم وردزورث ان أسماها «مظاهر الوجو المجهولة» كان مولعا دائب الاحساس بأن العالم سر مقدس يستغلق عـ الأفهام ، وأن هناك شيئا خارج الانسان لا تسمية له غير «الوجود الا المظلم» وهو وجود غامض ومعتم وحاصر يتجاوز حدود العقل الواع للانسان . ويفسر هكسلى موقف لورانس من الجنس فى هذا الضوء فاهمية التجربة الجنسية فى نظره تتلخص فى الادراك المباشر وعـ الذهنى وغير الواعى لهذا الحضور القدسى المتبلور فى بؤرة الظلمه ومعنى هذا أن التجربة الجسية جوهر الدين فهى همزة الوصل التى تر بين ظلمة اللاوعى وظلمة الله التى يعجز الإنسان عن استكناهه ومعنى هذا أن العملية الجنسية عبارة عن طقس مقدس وممارسة صوف تصل المرء بالذات الإلهية الغامضة والمجهولة . يقول لورانس فى ه الشأن : «نحن نعرف الله الأب ، ذلك المجهول الذى لا سـبيل معرفته» فى جسد امراة فهى الباب الذى ندخل ونخرج منه . وفى المر تتم عودتنا إلى الأب بطريقة عمياء وغير واعية . أما إذا تسرب النفـ الواعى إلى التجربة الجنسية فهذا هو الشر الإنسانى المستطير . ولذ السبب هاجم لورانس ممارسة الجنس على طريقة دون جوان وكـازانو اللذين سعيا إلى التجربة الجنسيـة بدافع واع للحصول على المتـ

واللذة ، فى حين أن العمـلية الجنسية إذا ارادت أن تكون صحية فيجب ان تكون عمـيـاء لا تفكر ولا تدبر أو تخطط . أى أنها يجب أن تكون استجابة تلقائية لنازع تلقائى . ومن ثم فـإن سعى المرء الواعى للحصول على اللذة الجنسية فى نظر مؤلفنا نوع من الكفر والتجديف وهذا على وجه التحديد ما دعا إليه فى روايته المعروفة «عشيق الليدى تشاترلى» .

ويستطرد هكسلى قائلا ان لورانس كان بكل تأكيد يتمتع بموهبة لا توجد فى السواد الأعظم من البشر الذين يرضون بالعيش فى نفق الحياة المضيء فى حين انهم يتجاهلون أن هذا النفق ما هو إلا بقعة صغيرة للغاية يحيط بها غلاف هائل من الاسرار والظلمة . وأدرك لورانس بموهبته الفذة وجود هذه الظلمة الخارجة عن الوعى البشرى وعن حدود الحياة اليومية المالوفة وسعى ما وسعه السعى إلى تصويرها فى أدبه . ولأن العقل والعلم يريدان من مساحة البقعة المضيئة او هذا النفق المضيء فان لورانس ناصبهما العداء فرفض الإيمان بالعقل ونتائجه بما فى ذلك العلم وكشوفه ذاهبا الى ان الجسد وليس العقل هو سبيل الإنسان لمعرفة الحقيقة . فالعقل يضل فى حين أن الجسد يهدى ونحن نراه فى عام ١٩١٢ يقول : «إن الدين العظيم الذى أدين به هو الإيمان بأن الدم والجسد أشد حكمة من العقل . إن عقولنا يمكن أن تخطىء ولكن ما يشعر به الدم ويؤمن به ويقوله لا ياتيه الباطل من خلف أو قدام» . وهو فى مقته للعلم يشبه الشاعر وليم بليك الذى كان يصلى من أجل خلاصه من أفكار عالم الرياضيات الكبير اسـحق نيوتن ، وايضـا يشبه

الشاعر كيتس الذي هاجم نيوتن لأنه قام بتحليل ألوان الطيف هاجم لورانس توسيع رقعة العلم والمعرفة ، اى زيادة رقعة النور لأن هذا يقتضى تقليص منطقة الظلمة الهائلة المحيطة بالإنسـ والقضاء أو التقليل من إحساسه بالعجب والدهشة مما فيها من أسرار يقول هكسلى إن كراهية لورانس للعلم كانت مشبوبة ولا عقلانية فقد حاول هكسلى ذات مرة أن يقنعه بسلامة نظرية التطور فكان فعله عنيفا وغير عقلانى ، فقد صاح قائلا : «كذب» . وعندما أصر هكسلى على تقديم البراهين العلمية الدالة على صحة هده النظرية رفض الاستماع وأشاح بوجهه قائلا : «إننى لا أهتم بهده البراهين فهى لا تعنى شيئا فى نظرى» ، ثم أضاف مشيرا إلى ضفيرته الشمسية (ا مجموعة الأعصاب الموجودة بين العمود الفقرى والمعدة) وهو يحـ بقوله : «إننى لا أشعر بها هنا» وبعد دلك تجنب هكسلى أن يناقشه ف اية موضوعات خلافية ومثيرة للجدل . ولهذا فضل لورانس الغر العمياء التلقائية على العقل لأن العقل يعرف ، فى حين أن الغريـ التلقائية تعيش .

ويبهنا هكسلى إلى كراهية لورانس للاعمال الفنية المجردة الكامـ التكوين والآثار العظيمة الخالدة على مر الزمان ، ويفضل عليها الأعمـ التى تعيش لأجل ثم ينتهى الأمر بزوالها . ولهذا فضل البناء بالطو النيىء على استخدام الحجارة . فالحجر يبنى الاهرامات التى لا تزول ف حين ان الطوب النيىء قصير العمر . ومن نفس هذا المنطلق نراه يفضـ الأغنية الشعبية البسيطة والخفيفة على السيمفونية الكبيرة والمعقدة

الأهرامات والسيمفونيات وشوامخ الفن المجرد تتسم بالكمال والديمومة وهو شيء يتنافى فى رأيه مع طبائع الأشياء الفانية والموقوتة. ويذكر لنا هكسلى أن لورانس اعتاد ألا يصحح كتاباته ويعيد ترتيبها بل يقوم إذا كان غير راض عنها بإعادة كتابتها من جديد ، مثلما فعل فى روايته «عشيق الليدى تشاترلى» التى أعاد كتابتها ثلاث مرات . ويعزو هكسلى امتناعه عن تصحيح كتاباته إلى نفوره من فكرة الكمال المجرد .

ويضيف هكسلى أن موقف لورانس من الأخلاق لا يختلف عن موقفه من الفن . لقد أنحى بعض النقاد عليه باللائمة لافتقار رواياته إلى الشكل فكتب محتجا بأن هؤلاء النقاد يريدون أن يفرضوا على اديه الروائى الشكل الذى يروق لهم وليس الشكل الذى يريد. ونفس الشىء ينطبق على موقفه من الأخلاق فهو يرى أن المرء مطالب بأن يستحدث لنفسه أخلاقا خاصة به ويعيش بمقتضاها ولا يعيش طبقا لما يريد المجتمع فرضه عليه من مواصفات وتقاليد اخلاقية .

آمن لورانس أن الحياة فن ، وأن فن الحياة أصعب من التأليف والكتابة ، واعتبر انصراف الإنسان الكامل إلى العمل وبذل الجهد المضنى فى أدائه نوعا من الفسق والفجور .فما أسهل أن يلجأ الإنسان إلى بذل الجهد المضنى هربا من الحياة . عندئذ يصبح الجهد الشاق فى رأيه ضربا من الترويح عن النفس وهكذا الحال مع الاستغراق فى التأملات المجردة مثل الاستغراق فى الروحانيات والتأملات السامية النبيلة حول

غاية الوجود وطبيعة الأشياء النهائية وهى الأمور التى أعلى الفيلسوف الفرنسى باسكال من شأنها ورأى فيها تأكيدا لعزة الإنسان وكرامته . وإذا كان باسكال قد رأى فى انشغال المرء عن التفكير فى هذه الأشياء النبيلة نوعا من الابتذال فإن لورانس على النقيض من ذلك رأى فى التفكير والأبدية ومثل هذه المسائل المجردة نوعا من الإسفاف . وفى ايجاز يمكن القول إن لورانس أصر على حياة الفرد التلقائية واستبعد المثل العليا والمبادىء الثابتة كما أنه أصر على أهمية الحدس، مستبعدا التفكير الواعى وإعمال العقل .

إن كراهية لورانس للمعرفة المجردة والروحانية الخالصة وإيمانه بقدسية التجربة الجنسية التلقائية جعلته يؤمن بنوع من المادية التصوفية . ومن ثم فهو لا يعتبر كائنا ماديا مثل القمر مجرد كوكب بارد مكون من الصخور لا يختلف عن عالمنا الذى نعيش فيه ، ولكنه رآه من منظور روحى شفاف كشىء ديناميكى مشع مثل الراديوم والفسفور . وذهب إلى أن المادة لا تقل فى حيويتها عن العقل المدرك لها . والرأى عنده أن النتائج الروحية الحية لابد وأن يكون لها أسباب مادية حية . كما أن مشاعر الإنسان العنيفة ورغباته القوية لابد وأن تكون قادرة على إحداث آثار قوية وعنيفة فى العالم الخارجى أو المادة الخارجة . والذى يستثير الروح بقوة وعنفوان لابد وأن يكون له نظير فى العالم الخارجى . ومعنى هذا أنه لم يكن ماديا فحسب بل كان ذاتيا أيضا . ومعنى هذا كذلك أنه آمن باحتمال وجود السحر بصورة أو بأخرى . وليس من شك أن ايمانه بالمادية التصوفية هو

الذى حدا به إلى إعادة صياغة المذهب المسيحى المؤمن بقيامة الجسد . وهذه المادية التصوفية تجعله يرفض فكرة بعث الروح بمعزل عن الجسد .

يقول هكسلى إن لورانس نذر كل كتاباته وجهوده الأدبية لاستجلاء ظلمتين : الظلمة المتركزة داخل الجسد والمتمثلة فيما تتمثل فيه فى الغريزة الجنسية وظلمة العقل المتمثلة فى اللاوعى . وينتقد هكسلى أدبه الروائى بقوله إن لورانس بانتهاجه هذا النهج فرض قيودا لا داعى لها ومعطلة على طاقاته الخلاقة فقد أفضى هذا إلى استبعاد أنشطة الانسان العادية والمألوفة فى دائرة اهتمامه الأدبى كما أفضى إلى تجسيد نظريته فى أعماله الخلاقة مثلما فعل فى روايتيه : «قوس قزح» و «نساء عاشقات» . ويلقى أحد خطاباته الضوء على نظريته فقد كتب فى ٥ يونيه عام ١٩١٤ إلى صديقه إدوارد جارنيت يقول : «على اية حال فإن الجانب الفيزيقى الذى يتجاوز حدود ما هو انسانى يثير اهتمامى أكثر مما يثيره العنصر الانسانى التقليدى والبالى الذى يجعل المرء يرسم شخصياته فى إطار أخلاقى معين على نحو متسق ومنسجم مع نفسه . ولهذا السبب بالذات اعترض لورانس على الاطار الاخلاقى الذى رسمه كل من تورجنيف وتولستوى ودستيوفسكى فى أدبهم .

ويحدثنا هكسلى عن الشكوى المرة التى جأر بها لورانس بسبب احساسه بالوحشة والانعزال عن المجتمع . والغريب أنه كان يتمتع بالقدرة على اقامة علاقات حميمة مع الذين صادفهم فى حياته .

وتصور روايته «حيوان الكانجارو» الصراع بين نزعاته الاجتماعية المتأصلة في نفسه ونزعته بسبب شيطان الفن نحو العزلة والانفراد . وهو صراع انتهى بغلبة الفنان الراغب في العزلة على الانسان الراغب في إقامة صلات مع غيره من البشر . ويعزو هكسلي تجواله في بقاع العالم المختلفة في سيلان واستراليا والمكسيك الخ ... إلى احساسه المروع بالوحشة . وكان تجواله هروبا في النفس بقدر ما كان بحثا عن مجتمع بدائي تلقائي لا تشوبه عيوب ومثالب المجتمعات الأوربية بوجه عام والمجتمع الانجليزي بوجه خاص ... ذلك المجتمع الذي استقر في وجدانه . ولا غرو فقد كان يحبه ويمقته في آن واحد . لم يشأ لورانس في البقاء في انجلترا بسبب ادراكه أن انشغاله بمشاكلها سوف يدفعه بالضرورة إلى الانخراط في المنظمات السياسية والمشاركة في الحياة العامة . في حين أن شيطان الفن فيه دفعه إلى اختيار حياة الوحدة والوحشة التي انتصرت على رغبته في الانخراط في الحياة العامة . يقول لورانس في هذا الشأن : «من الجائز أن قدري كتب على أن أجوب العالم وأعرفه . ولكن هذا يثيرني من خارجي ويترك داخلي منعزلا وأكثر قدرة على تحمل المكاره عن ذي قبل ... إنه شكل من أشكال الهروب من النفس ومن المشاكل الكبرى .. كل هذه الأسفار إلى الأماكن المتوحشة في الغرب الأمريكي واستراليا العجيبة !

كان هكسلي مفتونا بشخصية لورانس ومسحورا بها منذ أن قابله لأول مرة في لندن عام ١٩١٥ أثناء تأهبه للسفر إلى فلوريدا لإنشاء مستعمرة

يجرب فيها مع نفر من مريديه حياة البداوة . وهو الأمر الذي باء بالفشل والإخفاق شأن جميع محاولاته لإقامة مجتمعات بدائية في بقاع أخرى . أعجب هكسلي بشخصية لورانس واحترمها لأنه رأى أنها تختلف عن سائر الشخصيات التي عرفها في حياته وشعر أن لورانس ينتمي إلى جنس أسمى من جميع معارفه ... أسمى في الكيف وليس في النوع . ويضيف هكسلي أن لورانس في فتراته الأخيرة كان يتحدث كشخص ينازع الردى ويقترب من حافة الموت بسبب اعتلال صحته واصابته بمرض السل . وكان يبدو وهو يتحدث كإنسان في غفوة الموت وظلامه ليكشف عن أشياء جميلة وغامضة لا سبيل إلى سبر غورها . ثم أنه كان يتمتع بقدرة فذة على الشعور بمشاعر الحيوان والنبات والزهور . يقول هكسلي في هذا الصدد :

«بدا أنه يعرف عن طريق تجربته الشخصية أنه يعرف ماذا تكون عليه الشجرة أو زهرة الديزي أو الموجة المتلاطمة أو حتى القمر الغامض نفسه . وكان بمقدوره أن يشعر بمشاعر الحيوان ويخبرك بالتفاصيل الشديدة الاقناع كيف يشعر هذا الحيوان بل كيف يفكر على نحو معتم والمخالف للمألوف في عالم البشر .

وهذا ما تؤكده شهادة رجل آخر هو فيرنون لي الذي قال عنه إنه يرى مالا يراه البشر بل يرى من الطبيعة والأشياء الخارقة لها ما يعجز غيره عن رؤيته . ومن ثم قدرته غير العادية على حب البشر وكراهيتهم في آن واحد . كان لورانس ينقل من يتحدث معه إلى عالم علوي يتجاوز حدود الوعي الانساني . ومن ثم فإن الحديث معه كان تجربة مثيرة

للغاية . يقول هكسلى إن حديث لورانس لم يكن أبدا يبعث على الملل لأن لورانس نفسه لم يعرف الملل مطلقا . فقد كانت الأمور العادية تثير اهتمامه . كان لورانس يطبخ ويرتق الجوارب ويحيك القماش ويحلب البقرة ويتقن الحفر على الخشب والتطريز . وهى نشاطات لم ير أنها تافهة فقد كان يؤديها بحيوية دافقة وكأنه يأتى بجليل الأعمال غير أن تغيرا أسيفا طرأ عليه عندما بات من المؤكد أن أيامه على الأرض معدودة فقد زالت روحه المعنوية العالية وضحكاته النابضة بالحياة وتحول بأسه إلى شحنة من الغضب والسخرية والوحشة من كل شىء .

رقم الايداع : ٤٩٩٧ / ١٩٩٧

I. S. B. N

977-07-0530-6



د . هـ . لورانس
(١٨٨٥ - ١٩٣٠)

– واحد من أبرز أدباء النصف الأول من القرن العشرين ، تركت رواياته بصمات واضحة على فن الرواية.

– اسمه بالكامل دافيد هربرت لورانس ، مولود في اسرة فقيرة تعمل في المناجم وتعاني من فقر شديد . وتربى تربية دينية متشددة .

– نشر روايته الأولى «الطاووس الابيض» عام ١٩١١، ومن بين أعماله الأخرى الشهيرة «ابناء وعشاق» ١٩١٣ «قوس قزح» ١٩١٥ ، «نساء عاشقات» ١٩٢٠، «عشيق الليدى تشاترلى» ١٩٢٩ ، «العذراء والغجرى» ١٩٣٠ .

– تعدد عطاؤه الأدبي في كتابة الرواية ، والدراسة الأدبية، وعرف بغزارة ابداعه ، ومن بين اعماله النثرية المنشورة في كتاب الهلال : «فانتازيا الغريزة» ، و «الأدب المكشوف والبذاءة» المنشور باسم «الشذوذ والابداع» .

هذه (الرواية

تجيء أهمية الفن في أنه يحتمل التأويل والتفسيرات العديدة .

وعظماء الأدباء قدموا أعمالهم التي فسرها ملايين القراء بالعديد من وجهات النظر التي تختلف تماما ، أو تقترب من مفاهيم الكاتب ، أو عما يقصده .

وهذه الرواية التي تنشر لأول مرة باللغة العربية للكاتب د . هـ . لورانس من بين الاعمال التي تحتمل التأويلات الكثيرة . لقد كتبها لورانس عام ١٩٣٠ في أواخر حياته ، وبدت الرواية بمثابة حالة ابداعية خاصة تعكس كوابيس المرض التي كانت تتراكم فوقه .

وغرابة هذه القصة أنها هلوسة رجل عبقري اضناه المرض ، وأدناه من الموت ، فأصبح مستمسكا في يأس عظيم بتلابيب الحياة التي أوشكت على الانطفاء ..

سبق لروايات الهلال ان قدمت أبرز ابداع لورانس كاملا مثل «ابناء وعشاق» و «عشيق الليدى تشاترلى» واليوم نقدم «الرجل الذي مات» . وكأن لورانس كان يتنبأ برحيله .